محمد سمير الموصللي

مقدمة

عزيزي المغامر، هل ضاقت بك الحياة في بلدك وتحب أن تغامر في الذهاب إلى بلد آخر لعل الحظ يبتسم لك؟ هل لديك هدفا وتحاول الوصول إليه، هل تشعر بأنك غريبا في وطنك وتبحث عن بديل له في بلاد الله الواسعة؟ هل لك أسبابا أخرى تجعلك تنظر إلى رفاهية البلاد المتقدمة وعدم رضاك عن حياتك في بلدك؟ حاولت أن أكتب ذكرياتي ومغامراتي وشقائي ونجاحي في الغربة لعلي أستطيع أن أرسم صورة عن الحياة في بلد مختلف باللغة والعادات والتقاليد والعمل والرفاهية والقوانين للذين يريدون المغامرة في استكشاف العالم.

كنت مقيدا وثائرا في بلدي سورية، ناقما على العادات والتقاليد، ولكني لا أستطيع السباحة عكس التيار، والعصا التي لا تلين تنكسر، أشعر وكأني أعيش في سجن كبير، تعرفت على المعنى الحقيقي للحرية وأحسستها من خلال الكتب التي تشرح الحياة والرفاهية للشعوب المتقدمة، اكتشفت البؤس الذي أعانيه والقيود التي تكبلني، أصبحت أخاف من أحلامي، وأرتعش خوفا من سعادتي، كل شيء يقيدني أفكاري وعاداتي ولغتي وديني وعائلتي ومجتمعي وحكوماتي حتى آمالي ضاعت وانتهت.

ترعرعت في بيئة محافظة وعائلة متوسطة، عشت طفولتي بين كابوس المدرسة وسيطرة العائلة، وقوانين المجتمع البالية، أمضيت حياتي بالخوف من كل شيء، الأب والمعلم والمدير وصاحب العمل والشرطي والضابط والرئيس والله، تحللت شخصيتي بين العادات والتقاليد وقوانين بلدي، سلبت إرادتي بين العاطفة والانتقام، قتلت طموحاتي بين الكبت والمنع والحظر والحرمان، فقدت غرائزي بين الحلال والحرام، توقف عقلي عن التفكير والابداع.

أصاب بالغيرة عندما أرى الشعوب التي تفتخر بأوطانها، المجتمعات التي تعيش بالرفاهية والتي حقوقها مصانة وتبحث عن السعادة في محيطها الغني بوسائل الرفاهية والتقدم والنظام والعدل والقانون، يغمرني الحزن عندما أرى وطني، أشعر بالإحباط عندما أرى نفسي أجري لأحصل على شيئا من حقوقي المنهوبة، أرى وطني ثقيلا مجرما في قتل الأحلام، وكاذبا في رؤى المستقبل وبث الوعود، لا شيء يدفعني إلى حبه أو الكفاح من أجله، لا أمان ولا استقرار ولا حقوق ولا حرية ولا كرامة ولا مستقبل.

الشعب يجاهد ويكافح لتأمين ما تيسر من حقوقه ولقمة العيش مثل ما فعل والدي وكل الآباء من الطبقة الكادحة، ولكن هناك طبقة الحكام والمخادعين والوعظين الذين لا يتورعوا عن ارتكاب الفظائع وغسيل رؤوس البسطاء لتأمين استمرار تدفق نهر الغنى على بيوتهم التي فاضت من الثروات التي تحويها من سرقات الطبقة الفقيرة، السرقات الكبيرة التي تحدث في كل الأوقات كالبترول والأسلحة والمخدرات والنساء حتى الاتجار بالأولاد وبالأعضاء الداخلية للإنسان، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة وتحت أنظار هذا الشعب البائس الذي يكتم غيظه بصدره لينزلها على زوجته وأولاده أو جيرانه أو أي فقير مثله وكأنه ينتقم من نفسه بتصوره الآخر، أصبحت الناس تثور على بعضها لأتفه الأسباب، وأصبح بلدي على فوهة بركان سينفجر في أي وقت.

كل شيء هنا ينذر بعاصفة قوية تمحي الأخضر واليابس، زلزال جبار يقلب الدنيا رأسا على عقب، لا شيء يصبرني على البقاء هنا إلا الأهل والأصدقاء وبعض الذكريات، آن الأوان لأبحث عن وطن في مكان آخر لأن غربتي في وطني لم تعد تحتمل.

عندما تغلق الأبواب وتنفذ الحيل وتظلم الدنيا في الوجوه فما علينا إلا السفر لعلنا نبصر نورا ينير لنا طريق الخلاص ويحمينا من المجهول الذي يصعب علينا تخيله في أوطاننا التي حرمتنا حتى من حقوقنا الإنسانية.

البداية

كانت صداقتي مع عادل سطحية وبدأت بالتعمق عندما بدأت أساعدته للخروج من سورية كوننا تربطنا روابط عائلية بعيدة، ونحن في سن واحدة، كنت أدرس في كلية الزراعة وضاقت بي الحياة بسورية وبدأت أشعر بالاختناق ويجب علي السفر بأي طريقة ولأي مكان، ووجدت بمساعدتي لعادل منفسا للهروب من واقعي، واتفقت معه بأن يساعدني بدوره عندما يصبح قادرا في الغربة، ذهبت لألتحق بالجيش لأستطيع بعدها الحصول على جواز السفر لأنني ممنوع من السفر طالما لم أذهب إلى الخدمة العسكرية، وكنت أدرس بنفس الوقت في الجامعة، خضعت لعدة دورات في الجيش على جميع أنواع الأسلحة وعلى القتال وخاصة قتال الشوارع في دورة تدعى دورة الصاعقة وتدربت على القفز بالمظلة ومرت علي الكثير من الأحداث المحلية والعالمية من مذبحة صبرا وشاتيلا حيث كنت في لبنان من ضمن قوات الردع، إلى اغتيال بشير الجميل رئيس الجمهورية اللبنانية إلى تصفية الثورة الفلسطينية في تل الزعتر وهروب ياسر عرفات إلى تونس إلى ثورة الإخوان المسلمين ضد حكم الأسد في مدينة حماة السورية 1980 1982 حيث قمعت بشكل وحشي وراح ضحيتها حوالي 30000 نسمة، تسرحت من الجيش بعد أربع سنوات علما بأن الخدمة الإلزامية مدتها سنتان ونصف، وطلبت من عادل مساعدتي فأرسل لي قبول من الجامعة الفرنسية لأحصل على الفيزا بعد أن أرسلت له كل الأوراق اللازمة ومترجمة ومصدقة وعليها من الطوابع ما يفوق وزنها، وعندما حصلت على الفيزا لم أصدق أن الحظ بدأ يبتسم لي أخيرا، وبدون مضيعة للوقت حجزت على أول طائرة للذهاب الى فرانسا .....

كانت أمتعتي بسيطة وجلبت معي بعض الحلويات المشهورة بالإضافة إلى الزعتر الحلبي الممتاز، هذه أول مرة أركب فيها طائرة ركاب مسافرين حيث ركبت الطائرة أول مرة عندما كنت في الجيش في دورة المظليين حيث أجبرت على القفز بالمظلة عدة مرات، والآن هذه أول مرة سأرى نزول الطائرة في المطار، في الطائرة كانت تجلس بجانبي فتاة تركية وبجانبها الآخر والدتها حسب

ما فهمت لاحقا، بدأت تكلمني باللغة التركية التي لا أفهم منها شيئا، ورديت عليها باللغة السورية التي لا تفقه منها شيئا، وتعارفنا على بعضنا بالإشارة وبلغة لا هي تركية ولا هي سورية، لغة اخترعناها لكي نستطيع أن نفهم بعضنا، وتناقشنا في أمور لا أتذكر منها شيئا ولكني لم أشعر بالوقت الذي مر سريعا حيث وصلت الطائرة إلى بودابست، نزلت الطائرة في المطار وجلست بالترانزيت عشر ساعات لأركب طائرة أخرى توصلني الى باريس، حسب امكانياتي كنت قد اشتريت ارخص بطاقة ممكن السفر بها الى فرانسا، تعرفت في الطائرة الفرنسية على أحد الفرنسيين واتضح بأنه أحد اللاعبين في فريق كرة القدم يعود مع فريقه إلى فرانسا، حيث قام بتقديم فريقه فردا فردا لي وسط اندهاشي لبساطتهم واحترامهم للإنسان، وكل واحد منهم يقف ويمد يده لي ليصافحني، هل أنا في حلم أم ماذا يحصل لكي يتقدم هذا الفريق للنزول إلى مستواي ويصافحني بحرارة وكأنني مدير لهم، أخفيت اندهاشي حتى أظهر بمظهر الإنسان الطبيعي واستطعت أن أخبرهم على مدى اعجابي بمهارتهم من باب المجاملة مع أنني لم أهتم يوما بكرة القدم ولا أتابع أخبارها، ولكي أرفع من مستواي تجاههم أخبرتهم بأنني فزت بالمركز الخامس ببطولة الشطرنج في سورية وطبعا لم أكذب في ذلك حيث كنت آمل بملاعبة أحدهم لأبرز لهم مهارتي في هذه اللعبة الشيقة، وصلت الطائرة الى مطار أورلي بباريس وتقدمت الى الجهات المختصة لختم جواز سفري حيث طلبوا مني أن أتجه إلى مكتب خاص وحدي، جلست وحيدا داخل المكتب بضع دقائق ثم دخل أحد الضباط ليسألني عن أمتعتي وماذا تحوي، ثم سألني عن الزعتر الحلبي فشرحت له بأنه من الأكلات الشعبية في سورية، اعتذر مني على إضاعة وقتي معه وتشكرني لإجابتي على أسئلته وطلب مني الذهاب لاستلام أمتعتي، ضابط كبير يتشكرني ويعتذر أيضا على مضايقته لي، شعرت وكأنني أريد أن أبكي على حسن معاملته أمام معاملة ضباط وطني، خرجت مع أمتعتي دون أن يوقفني أحد واتصلت هاتفيا بعادل لأعلمه بوصولي الى فرانسا، انتظرته لمدة ساعة أو أكثر أسير خلالها من أول المطار لآخره ثم أعود إلى نقطة الانطلاق، مر الوقت سريعا لأنني كنت أراقب كل شيء، عمال النظافة وطريقة عملهم والأدوات المتطورة التي يستعملوها في التنظيف وكان المطار نظيفا جدا برغم العدد الهائل من المسافرين المغادرين والقادمين، وعمال نقل العربات إلى المسافرين لنقل أمتعتهم في تحرك دائم، وأدهشني الترتيب والتنظيم في تعاملهم مع المسافرين حيث كان الفرق واضحا بينهم وبين مطار بلدي، في وطني لا تجد عربة سليمة لنقل الأمتعة ومع هذا يجب أن تدفع مبلغا من المال لتؤجر عربة هذا

إذا وجدتها، جاء صديقي عادل ونقلني بسيارته إلى الفندق الذي يعمل به، ومن خلال إقامتي في هذا الفندق تعرفت على الكثير من السوريين الذين نزلوا في هذا الفندق كون صاحبه سوري الأصل، وبدأت أتعرف على باريس وشوارعها والأماكن السياحية فيها، شتان ما بين فرانسا وسورية، أحسست بالفرق الهائل منذ ركوبي الطائرة مع فريق كرة القدم ثم مقابلتي لضابط الأمن، وهذه الأماكن السياحية التي تروي تاريخ فرانسا ومعاناتها للحصول على حريتها وتقدم حضارتها، أصبحت حساسا لكل شيء أراه، تغرق عيناي بالدموع عندما أشعر بالفرق بين وطني وفرانسا، هل هو الغيرة أم الحسد لا أعلم، لماذا هم متقدمين عنا بقرون عديدة، لماذا نحن متخلفين إلى هذا الحد؟ أصبحت أراقب وأحلل كل شيء أراه إلى أن أصبحت دليلا سياحيا لنزلاء الفندق السائحين.

مكثت فترة لابأس بها في هذا الفندق أدرس خلالها اللغة الفرنسية مجانا في بلدية المنطقة التي أسكن بها، تعرفت خلالها على زنجي من الصومال وعلم بأنني من سورية وطلب مني أن أعلمه اللغة العربية ليستطيع قراءة القرآن فرحبت بذلك، ذهبت معه بعد المدرسة إلى مكان سكنه، كان يسكن في بناء مخصص للزنوج يتألف من عدة طوابق وكل طابق يحوي العديد من الغرف المسكونة مثل بناء السكن الجامعي، ومشيت معه في ممرات المبنى المليء بالزنوج الذين يسيرون في كل الاتجاهات إلى أن أضعت صديقي لأنهم جميعا متشابهين ولم أستطيع تمييز صديقي عنهم إلى أن كلمني صديقي وطلب مني أن أتبعه فاطمأنت بأني لم أضيعه، دخلنا غرفة كبيرة نوعا ما وفيها عدد من الزنوج الجالسين على الأرض بشكل دائري حول طبق كبير من الرز ودعونا لمشاركتهم، أفسحوا لنا المكان وجلست مع صديقي معهم، بدأوا بتناول الطعام بأيديهم لعدم وجود ملاعق أو لربما ليسوا متعودين على أكل الملاعق، وبدأت آكل معهم بيدي الوحيدة البيضاء أمام أيديهم السوداء، تعرفت عليهم جميعا ولو أني لم أفرق أحدهم عن الآخر، ورحبوا بي أشد الترحاب بعد أن أخبرهم صديقي بأنني من سورية، ولغتي هي اللغة العربية وسأساعد صديقي على تعلمها.

صديقي عادل الذي عمل كل ما يستطيع لكي يسافر إلى فرانسا، هناك عمل بكل المهن التي استطاع العمل بها، وخاصة في بار لتقديم المشروبات الباردة والحارة والكحولية لزبائن في المطعم، توجد في فرانسا مطاعم مختصة بالمطابخ العالمية، تقدم الأكلات الشعبية لكل بلد من بلدان العالم، توجد منها ما يقدم فطور الصباح والظهيرة والمساء ومنهم من يقتصر على الغداء والعشاء ومنهم ما يقدم الطعام

على مدار الساعة، وتوجد مطاعم سيلف سرفيس وتعني الخدمة الذاتية أي يدخل الزبون ويأخذ الصينية والخبز والملعقة والشوكة والسكين وكأس فارغ ويمر على أماكن السلطات ليأخذ ما يشاء ثم أماكن الطبقات الرئيسية ثم الأجبان بأنواعها والمشروبات الباردة أو الكحولية، أما المطعم الذي عمل فيه صديقي فهو المطعم الشعبي الفرنسي، يفتح صباحا باكرا ليقدم للزبائن القهوة وقوفا على البار ليتجاذبوا أطراف الحديث ويبدؤون بالتدخين ورمي أعقاب السكاير على الأرض، هكذا العادة على البارات ليأتي صاحب البار كل فترة ليجمع هذه الأعقاب ورميها بعيدا، وأذكر أنهم بدأوا يضعون صحون للسكاير على المنضدة ثم منعوا التدخين نهائيا في المطاعم والبارات وكل الأماكن المزدحمة، وقليل من الزبائن من يجلس على الطاولات وخاصة النساء اللاتي يشربن القهوة قبل الذهاب إلى أعمالهن، منهم من يطلب القهوة فقط ومنهم من يطلب تارتين وهي عبارة عن قطعة خبز وعليها طلاء من الزبدة، ومنهم من يطلب كروا صان وتعني الهلال بالفرنسية وهي عبارة عن قطعة من العجين تشبه الهلال تعمل بطريقة خاصة وتشوى في الفرن ويوضع عليها طبقة خفيفة من البيض المخفوق ويمكن وضع الزبدة معها، أو خبز بالشوكولا أو العنب المجفف وهي عبارة عن نفس الكرواصان ولكنها معمولة بطريقة أخرى ويوضع بداخلها شوكولا أو العنب المجفف ويوجد من يحب أن يشرب البيرة بدلا من القهوة في الصباح، وفي الظهيرة أي الساعة 12 ظهرا بالتمام والكمال يقف العمال وأغلب الموظفين عن العمل ويتجهوا نحو المطاعم لتناول وجبة الغداء، ويمتلئ مطعم صديقي بالزبائن وتقدم لهم طبق اليوم ويكون مكتوب على لوحة كبيرة ما هو طبق اليوم ومن لا يعجبه هذا الطبق يطلب شيئا آخر مثل البطاطا المقلية مع قطعة لحم مقلية وسلطة وكأس من النبيذ أو البيرة أو الماء، أو معكرونة مع قطعة من الدجاج المشوي، وقبل البدء في تناول الطعام يمكن أن يشربوا بعض المشروبات الكحولية لفتح الشهية والمقبلات، وينتهي الغداء الساعة 13.30 حيث يذهب كل إنسان إلى عمله ويبدأ عمال المطعم في التنظيف ماعدا البار الذي يبقى يستقبل زبائنه لغاية الساعة التاسعة مساء حيث يقفل المطعم إلى الساعة السادسة من اليوم الثاني، يحب صديقي أن يُظهر نفسه كإنسان غني يشتري أغلى الملابس حتى ولو كانت غير جميلة، يحب الموسيقى كثيرا بحيث لا يمر أسبوعا إلا وقد اشترى عدة اسطوانات لأشهر الموسيقيين بالعالم، هذه الأيام كانت الموضة عبارة عن أسطوانات ال 33 دورة أو ال 45 دورة بالإضافة إلى الكاسيتات المسجل عليها أحدث الموسيقى العالمية التي تباع في أماكن عديدة مثل الأماكن المخصصة للموسيقى أو السوبر ماركت

وهي عبارة عن محلات كبيرة جدا تحوي كل ما تريد شراؤه من طعام وشراب وملابس وألعاب وأدوات صيانة وأدوات منزلية وتلفزيونات وغسالات ..الخ.

عن طريق الصدفة، تعرف على كاترين، فتاة شقراء جميلة طويلة القامة وضحوكة وتحب الحياة الصاخبة ضمن أجواء الأغنياء والتباهي بملابسها الفاخرة أو عطورها الغالية أو حركاتها البرجوازية وكانت تنظر إلى الفقراء نظرة فيها شيئا من الدونية، كانت تعمل كمدرسة للغة الفرنسية للأجانب كونها تتكلم اللغة الإنكليزية بطلاقة، أعجب كل منهما بالآخر وقررا العيش معا بدون زواج، لأنني كما فهمت بعد فترة طويلة أن أهلها لا يحبون الأجانب وكانت هي وأهلها ينتخبون دائما جان ماري لوبين زعيم العنصريين في فرانسا، بعد فترة من وصولي أصبحت أعمل بالفندق الذي نزلت فيه وكان بجانب الفندق محل تجاري لبيع الملبوسات كانت تعمل به فتاة جزائرية تعرفت عليها وتعمقت الصداقة إلى اعجاب وحب، تركت عملي بالفندق ونزلت عندها في استديو متواضع، ثم انتقلنا الى بيت أكبر في ضواحي باريس، كان صديقي عادل قد تعرف على صديقته كاترين ويبحث عن سكن فأعطيته الاستديو الذي كنت أسكن به على شرط أن لا يعطيه لأحد إذا خرج منه لأن السكن بباريس صعب جدا ولدي الكثير من الأصدقاء المحتاجين لهذا السكن، ومن سوء الحظ اصابني شلل نصفي دخلت على أثره المستشفى حيث أجري لي التحاليل اللازمة لمعرفة السبب، وبقيت فيها لمدة شهرين دون اكتشاف أو معرفة أي مرض، كانت صديقتي الجزائرية تتردد لزيارتي دائما وذات مساء جاءت لزيارتي وهي تبكي، تنظر لي وتبكي، فسألتها مستفهما فجاوبتني بكلام لم أفهم منه شيئا سوى أنها مشتاقة لي ولكني علمت فيما بعد بأنها سمعت الممرضة تتكلم بالهاتف إلى جهة مجهولة لتنطق باسمي وعمري والأعراض التي تنتابني والتوقع بإصابتي بالسرطان في المخ ولم يبقى أمامي إلا بضعة أسابيع للحياة، ولكن حالتي تحسنت وخرجت من المستشفى ولكني كنت ضعيفا جدا لا أقوى على العمل، لم أكن مسجلا في التأمينات الاجتماعية بعد، والمستشفى لم يتقاضى أي مبلغ أو ضمان للأيام التي قضيتها عندهم أو الفحوصات التي لا تعد ولا تحصى أو الخدمات الإنسانية التي يعاملون بها مرضاهم، لا شيء سوى وعدي لهم بأن أرتب وضعي بأسرع وقت، بعد خروجي ذهبت إلى مكان التأمين الصحي وبكل سهولة أعطوني كرت الضمان الصحي كوني عملت في محل تجاري كبائع عدة شهور، ثم قدمته إلى المستشفى التي بدورها حصلت على حقها، من حسن الحظ أصبحت أتقاضى راتبا شهريا من الدولة كوني عاطل عن العمل ومريض، وبعد عام وقعت في الشلل النصفي

مجددا وذهبت الى المستشفى مجددا حيث نقلوني الى أحسن مستشفى في فرانسا ليكتشفوا السبب، اكتشفوا أخيرا مرضا عصبيا يصيب منطقة الشرق الأوسط فقط، يدعى بالتركي بهجت على اسم العالم التركي الذي اكتشفه، أي حملته معي من سورية وهو غير معدي ويمكن نقله بالوراثة، وتظهر أعراضه عند الإرهاق الجسدي، بعد شهر ونصف خرجت لأعيش مع صديقتي الجزائرية عاما آخر لا أستطيع العمل فيه وأعيش على راتب الدولة إلى أن عاد مرضي مرة أخرى ودخلت أثرها المستشفى لأقضي شهرا آخر عانيت فيه الكثير من الوحدة والملل وبدأ الحنين إلى وطني يزداد رويدا رويدا واشتقت إلى أهلي وأصدقائي والسير في شوارع بلدي وأصبحت أحلم قبل أن أنام بنزهاتي مع أصدقائي والسهرات الجميلة وأيام الدراسة والعقبات التي اجتزتها والنجاحات التي احتفلت بها مع أهلي وأصدقائي، كانت دموعي تنهمر كل مساء قبل النوم كلما عادت مخيلتي إلى تلك الذكريات.

خرجت من المستشفى بعد شهر وعدت لمنزل صديقتي الجزائرية التي تقطن على بعد 2 كم من باريس حيث وجدت رسالة على الطاولة تطلب مني الخروج من حياتها....

تركت مفاتيح المنزل بجانب الرسالة وحملت حقيبتي التي لم تفتح بعد وذهبت لا أنوي على شيء، اتصلت بعادل لأستفهم منه إذا وجد سكنا آخر فأجابني بأنه انتقل إلى منزل آخر أكبر وأجمل وترك الاستديو إلى صاحب المطعم الذي يعمل به ليقوم بغرامياته بعيدا عن شكوك زوجته، كان أملي أن اجد هذا الاستديو جاهزا لسكني ولكن للأسف فقد تصرف به صديقي لا كما يحب بل كما يطلب منه لأنه لا يستطيع قول لا، كنت قد تعرفت على بائع ورد في محطة المترو التي بجانب بيتي من باكستان لا يعرف الفرنسية إلا القليل وكنت دائما أشتري الورود من عنده لأساعده وكنت قد اشتريت من عنده وردة جميلة حمراء لصديقتي الجزائرية قبل دخولي المنزل وقراءة رسالتها، وعندما رآني عائدا وعلامات التعب واضحة على وجهي أسرع نحوي يستعلم عن السبب فطلبت منه إذا كان يعرف غرفة للآجار بأي مكان، فوجدته يحمل طاولته الصغيرة وعليها بعض الورود الجميلة وأشار لي بأن أتبعه، ركبنا المترو ونزلنا في وسط باريس ودخل بناء في أحد الشوارع وصعدنا الدرج للطابق الخامس لعدم وجود المصعد الكهربائي، ورأيته يشاور لي بأن أنتظره، من عادة الفرنسيين أنهم يتركون الطابق الخامس من كل مبنى لسكن العاملات التي تعمل في بيوتهم، وهذه الطوابق عبارة عن غرف

صغيرة تتسع لشخص واحد أو اثنان للنوم فقط، لأن مساحتها صغيرة لا تكفي أحيانا لوضع سرير لشخصين، خرج بائع الورد من إحدى هذه الغرف وطلب مني أن أتبعه إلى غرفة أخرى فارغة مساحتها 2*2 متر أي 4 متر مربع وتوجد فيها نافذة صغيرة تطل على سطح البناء المائل كما توجد فيها مغسلة صغيرة وصنبور ماء بارد فقط، طلب مني ألف فرنك في الشهر اجرة هذه الغرفة فوافقت على الفور من تعبي وطلبت منه عدم ازعاجي لأنني بأشد الحاجة إلى النوم والراحة ونمت على ملابسي التي وضعتها كلها على الأرض الفارغة وذهبت في نوم عميق.

مرت عدة شهور لا أقوى على العمل ولا حتى السير، كنت أبذل جهدا كبيرا في الخروج لأشتري ما يلزمني من أدوات المطبخ أو ما أحتاجه للنوم وخبزا وبعض الأطعمة لمدة يومين أو ثلاث لكي أرتاح من الخروج من الغرفة ونزول وصعود الطوابق الخمس على الدرج.

كانت الغرفة قريبة من منطقة أثرية جميلة جدا عبارة عن كنيسة على تلة عالية جدا أرى باريس من خلالها وكانت محاطة من أحد جوانبها بحديقة جميلة جدا ومن الجانب الآخر ساحة للرسامين الذين يرسمون وجوه السياح مقابل بعض النقود، يدعى هذا المكان [مومارت] والكنيسة اسمها [ساكريكور] بما معناه القلب المقدس، وفي هذه الأحياء القديمة مومارت كانت تسكن المطربة داليدا وقد أطلقوا اسمها على اسم الشارع الذي كانت تقطنه قبل انتحارها، وبما أني كنت غير قادرا على العمل كنت أقضي أوقاتي في هذه الأماكن الرائعة حيث تعرفت على صديقتي الفرنسية سيلين التي جاءت الى باريس للبحث عن عمل من منطقتها التي تبعد 500 كم عن باريس وتنزل عند شقيقتها المتزوجة في ضواحي جنوب باريس، وعزمتها على الطعام عندي في الغرفة الصغيرة ثم أوصلتها الى بيت شقيقتها، كنت كل يوم أتصل بها ونتكلم ساعات على الهاتف وبعد أسبوع تفاجأت بقدومها لعندي مع حقيبتها حيث طلبت مني ايواؤها بسبب شجار بينها وبين اختها، وسكنت عندي مدة ستة أشهر، نأكل ونشرب وننام على سريري الصغير الذي لا يسعني وحدي وكنت قد وجدت عملا مع المصريين في ورشات الدهان، جاءت صديقتي الجزائرية تبحث عني وتعتذر عما بدر منها لأنها كانت على وشك الانهيار العصبي وترجتني أن أعود للسكن معها لأنها تحبني ولا تستطيع الابتعاد عني أكثر من ذلك، كنت قد أحببتها قبل أن أقع في المرض، واكتشفت بأنني لا أزال أحبها بالرغم من كل ما فعلته وسامحتها بسرعة وعدت للسكن معها

أما سيلين فكانت سعيدة بالسماح لها السكن في الغرفة الصغيرة بدلا مني وكنت أتردد عليها دائما، ولقد وجدت سيلين عملا في شركة لتزيين ستائر النوافذ ولتلبيس الكنبات بالأقمشة المذهبة وكانت هذه الشركة تعمل لزبائنها من دول الخليج الذين يدفعون بسخاء، وقد وجدت سيلين استديو أكبر وانتقلت إليه وتركت لي هذه الغرفة الصغيرة التي احتفظت بها للطوارئ، مضى عام آخر مع صديقتي الجزائرية وجاء الوقت الذي أحسست فيه ببدايات الانهيار العصبي لديها فجمعت حوائجي وذهبت لأعيش في هذه الغرفة الصغيرة، ولم تمانعني أبدا فعلمت بأنها كانت تتمنى رحيلي ولكنها لا تستطيع مصارحتي، كانت صديقتي الجزائرية تتردد لعندي في هذه الغرفة وتنام عندي أحيانا، كما كانت تتردد لعندي سيلين أيضا وتدعوني للسكن عندها لأن المكان أكبر، أصبحت صحتي جيدة واستطعت إيجاد عمل في الشركة الفرنسية للدهان حيث قمت بطلاء منزل سيلين الجديد ثم انتقلت للعيش معها، وتعرفت على صاحب الاستديو وعرض علي استديو آخر بالبناء المجاور لمنزل سيلين حيث وافقت عليه وأخذته وأصبحت جارا لسيلين، كانت صديقتي الجزائرية تتردد لعندي دائما وكانت سيلين تتصل بي هاتفيا قبل أن تأتي لعندي لئلا تجتمع مع الجزائرية، كما وأصبحت الجزائرية تدعوني لزيارتها حتى لا تجتمع مع سيلين، وأصبحت الرجل المدلل من الطرفين، ولم أعد أشعر من أحب أكثر ولا أعلم من يحبني أكثر، وعندما حملت سيلين مني جاءت لتسكن معي بشكل دائم، ولم تنقطع العلاقة بيني وبين الجزائرية بل لقد تعمقت أكثر من الأول، كنت أعيش مع سيلين بدون زواج والسبب هو عدم رغبتنا في الزواج، أو الارتباط بشكل عام لعدم اليقين من استطاعتنا العيش معا بشل دائم، الفرق كان واضحا جليا بين عائلة صديقي عادل وعائلة صديقتي سيلين، حيث كانت عائلة صديقتي سيلين بسيطة وتحب كل الناس مهما كان أصلهم، وكانت صديقتي رقمها 11 من 12 فرد من أسرتها المكونة من 10 بنات وصبيين، أما كاترين فكانت عائلتها مكونة من أربعة أفراد الأب والأم وبنتان، وهي كانت البنت الصغرى حيث أن أختها الأكبر منها كانت متزوجة، كما كان والديها يضحكان من كاترين على ذوقها في اختيار أصدقاؤها بالتلميح إلى صديقي عادل وتعرفت على عائلة صديقته الفرنسية كاترين التي تقيم بنفس الحي الذي يقطنه عادل، أما عائلة صديقتي سيلين فهي تبعد 500 كم عن باريس.

رزق عادل بولد أنزله على اسمه كونه اعترف بطفله من قبل أن يولد ومن غير أن يكون متزوجا من صديقته ولأن القانون الفرنسي يسمح للمرأة أن تنجب ولدا

وتنزله على اسمها خاصة إذا كان مجهول الأب، عندما كانت حامل كنت أراها تأتي أحيانا كثيرة الى الشركة الحكومية التي كنا نعمل بها لكي ترافق عادل لتناول العشاء في مكان ما وكانت ترافق حتى أصدقائه الى المطاعم حيث أنها كانت تتناول طعامها دائما خارج بيتها ونادرا ما كانت تعمل الطعام في منزلها، أما أنا فكنت نادرا ما أتناول طعامي خارج منزلي حيث كانت صديقتي سيلين تطبخ الأكلات الفرنسية وأنا أطبخ الأكلات السورية، كانت كاترين ترافق حتى أصدقاء صديقي عادل لكي تتباهى بجمالها وبرجوازيتها بأن الرجال تجري وراءها أما عادل فكان يتباهى هو أيضا كونه متفهم العلاقة بين الرجل والمرأة وهو غير معقد بالغيرة مثل بقية العرب، بعد عام على مولود طفله رزقت أنا أيضا بطفل أنزلته على اسمي كوني غير متزوج أنا أيضا من صديقتي الفرنسية سيلين، ترجتني سيلين بأن تحتفظ بالمولود عندما كانت حامل به وان لا أحمل أي هم بالإنفاق عليه لأنها ستتولى كل ذلك لوحدها على أن أدعها تحتفظ به، الفرق بيني وبين عادل هو أنني لست متأكدا من حبي لصديقتي لكي أتزوج بها وكانت هي أيضا غير متأكدة من حبها لي، وكنا صريحين جدا بهذه المواضيع حيث كنا نعمل نحن الإثنين ونتشارك في المأكل والمشرب وأجار البيت وكل المصاريف وندخر بعض النقود للرفاهية من وقت لآخر، أما صديقي عادل فحتى الآن لم أفهمه هل كان يحبها فعلا أم أنه كان يتباهى بها بين الناس كونها صديقته الجميلة الشقراء الطويلة ويعتليه الغرور بنفسه عندما يرى إعجاب الناس بصديقته وجريهم خلفها، خاصة وهم غير متزوجان وليس مرتبطان بأي معاهدة، من خلال صداقتي القريبة جدا بهم ومناقشاتي لهم في كافة المواضيع اكتشفت أن عادل لا يهمه سوى اشباع غروره أما صديقته فلا يهمها إلا جمالها وإعجاب الناس بها، طلب صديقته كاترين للزواج عدة مرات ولكنها لم توافق ربما لأنها قررت بينها وبين نفسها بأنها لن تكمل المشوار معه، أو لعلها لا تزال مترددة بفهم عواطفها نحوه.

في يوم من الأيام وبعد انقطاع بيننا دام أكثر من شهران علمت أن والدها طلق والدتها والسبب هو الملل بحيث والدها تعرف على فتاة برتغالية أصغر من ابنته الصغرى وعشقها وسكن معها بمنزل قد اشتراه لها لأن والدها كان يعمل مع الحكومة الفرنسية بمكانة جيدة وحساسة عند الدولة، وهو ميسور الحال ربما من وراء الرشاوي والله أعلم، لأن الرشاوي واردة عند الفرنسيين الكبار في الدولة فقط وليس عند الشرطة مثلا وخاصة إذا كان الموظف فرنسي من أصل عربي، أما والدتها التي كانت تعمل بمحل لبيع فساتين العروسة فقد تعرفت على شقيق

هذه الفتاة البرتغالية الذي يبلغ من العمر بعمر ابنتها الصغرى، وأعتقد بأنهم قد تعرفوا على هذه العائلة البرتغالية الشابة معا وقررا الطلاق حيث أخذ الوالد البنت وأخذت الوالدة الشاب، تجديد للشباب، الوالدة لن تنجب أطفالا لسبب سنها الكبير أما الوالد فقد أنجب من زوجته البرتغالية ثلاث أو أربع أطفال لا أعلم لأن علاقتي بهم قد انقطعت منذ فترة طويلة، كانت لهذه العائلة البرتغالية البنت والشاب الذين ذهبا مع الوالدين أخ ثالث لا أعلم هل هو أكبرهم أم أصغرهم، جاء من البرتغال بعد فترة ولم يجد أين يسكن، الأب مع اخته والأم مع أخيه فطلبوا من صديقي عادل إيواءه لبعض الوقت ريثما يجد مأوى له وعمل يستطيع العيش به، كان هذا الأخير أسمر اللون كثيف الشعر يشبه عادل ولكنه كان أنصح منه وأقصر ولكنه كان يفتعل الحركات المضحكة ليسلي من حوله، وخاصة كاترين التي بدأت نظراتها تتغير نحوه ونشأت صداقة بينه وبين كاترين حيث تطورت الى اعجاب وشهوة وجنس وحب وصديقي عادل لا يفعل شيئا إلى أن قررت كاترين وصديقها البرتغالي الانتقال الى منطقة في نصف فرانسا تبعد أكثر من 700 كم عن باريس وأخذوا الطفل معهم الذي أصبح عمره ال10 سنوات أو أكثر وتركوا عادل وحيدا يسهر كل يوم بمكان مختلف ويعمل بالنهار ليصرف كل ما يملكه في الليل، هذه كانت عادته حتى من قبل أن يرزق بطفله وغالبا ما كان يستدين ثمن الوقود لشاحنته لكي يتابع عمله أما أنا فقد امتنعت عن امداده بالمال لعدم احساسه بالمسؤولية ولعدم استرجاعي للمبالغ التي أخذها مني، حتى كاترين امتنعت في السنوات الأخيرة عن امداده بالنقود لشاحنته.

إن الجنس عند الفرنسيين رغبة طبيعية يجب أن تمارس مثل الأكل والشرب والنوم سواء للذكر أو للأنثى بحد سواء، وطبعا يوجد الوفاء بين الزوجين أو العشيقين اللذان يعيشان معا بدون زواج، كما توجد حالات الخيانة بينهما حيث يتم بالطلاق أو الفراق إذا لم يكونوا متزوجين، إن البنت والشب عندما تصبح أعمارهم 18 سنة يصبحوا أحرارا بأن يتركوا منزل العائلة للعيش بمفردهم أو مع عشاقهم، وإذا كانوا لا يزالون يدرسون ولا استطاعة لهم للعيش بمفردهم يبقوا في بيت ذويهم ويستقبلون عشاقهم في غرفهم ببركة الوالدين، ومن الصعب أن نجد انثى أو ذكر يصل الى سن ال 18 دون أن يكون قد مارس الجنس عدة مرات في حياته، وقد أصبح لديهم الخبرة الكافية في هذه الأمور والخبرة في الحياة وفي تأسيس العائلة المستقبلية، كما ويتلقون النصائح من الآباء ومن المدارس ومن الجو العام للبلد من حيث المكتبات المنتشرة في كل حي أو من الأخبار والجرائد

والمجلات المختصة بذلك، وإذا حملت الفتاة من عشيقها لعدم تناول الحبوب لمنع الحمل مثلا التي تباع في كل مكان ولكن بأمر من الطبيب الذي يعطي لكل حالة ما يلزمها لتكون بأمان عندما تمارس الجنس، فتكون النتيجة إما الاحتفاظ بالولد أو لا وهذا يرجع إلى قرار العاشقان أصحاب القرار الفعلي وعلى المجتمع الفرنسي أن يقبل بهذا القرار مهما كان، أما إذا كان هنالك اختلاف بين العاشقين فعلى الفتاة أن تقرر هل تحتفظ بالطفل أم لا، فإذا لا تريد الاحتفاظ به فهناك أطباء نفسيين لمعالجتها حتى تأخذ القرار السليم دون خوف وإذا قررت عدم الاحتفاظ به رغم كل النصائح الموجهة إليها فالعملية تجري على حساب الدولة ولا تدفع قرشا واحدا، أما إذا قررت الاحتفاظ به رغم أنف عشيقها فلا مانع، ان لكل إنسان عنده شركة التأمين على الصحة وبذلك تختار الفتاة الطبيب الذي سيرافقها طيلة فترة الحمل إلى الولادة وطبعا لا تدفع شيئا وإذا كان العشيق لا يريد الاعتراف بالطفل فلا مانع سينزل الطفل على اسم والدته العائلي، وإذا اعترف العاشق بالطفل فيستطيع تنزيله على اسمه العائلي، أو يمكن أن يحمل المولود الجديد أسماء عائلة والده ووالدته معا، كما حصل لصديقي عادل وكما جرى معي عندما رزقت بطفلي، أما نفقات الطفل، فإذا كانت الأم وحيدة أو الأم والأب معا ولم يستطيعوا تربية الولد فالحكومة هي التي تتكفل به وتستطيع الأم رؤية طفلها ينموا ويكبر كما تشاء، وعلى الدولة مراقبة جميع الأمهات والآباء في المجتمع الفرنسي وكيف يتربى أطفالهم فإذا اكتشفوا أن ولدا يعيش بعذاب أو بعدوانية الأهل أو يعيش مع اخوته الذين يزيدون عن ثلاث أفراد في غرفة واحدة أو يعيش بفقر يمنعه التمتع بالطفولة مثل بقية الأطفال أو أي سبب آخر، تستطيع الدولة وبأمر من المحكمة أن تأخذ الولد وتربيه عند عائلات مختصة كمهنتي الحالية التي سأتكلم عليها لاحقا، وطبعا يحق للآباء رؤية أطفالهم عند هذه العائلات المختصة، أو أن يأخذوهم لبيوتهم في العطل المدرسية أو يرونهم تحت مراقبة الحكومة وكل حالة لها ميزاتها القانونية.

عشت لحظات سعيدة وأياما جميلة ولكنها غير مستقرة، كنت قد تعرفت على فتاة سورية وأصبحنا أصدقاء وكنت أصارحها بكل شيء وعرفتها على سيلين وعلى أهل سيلين، وعرفتها على الجزائرية وأصبحوا أصدقاء، وفي يوم من الأيام ذهبت لعند هذه الفتاة السورية كالعادة وإذ أجدها مع صديقة لها مغربية حيث تعمقت الصداقة بيني وبين هذه المغربية نادية بسرعة وأحببنا بعضنا وتزوجتها بعد أن قطعت كل العلاقات مع الجزائرية والفرنسية، حيث ذهبت سيلين لعند أهلها وأصبحت لا أرى ابني إلا نادرا.

عذاب الضمير

عندما كانت صديقتي سيلين حبلى في المرة الأولى طلبت منها عدم الاحتفاظ بالطفل كوني لا أستطيع متابعة المشوار معها وهي أيضا تقابلني نفس الشعور ولكنها ترجتني أن أترك لها الطفل وهي لن تطالبني بأي نفقات في المستقبل لهذا الطفل وعاهدتني بأنها لم تقف بوجه سعادتي إذا هجرتها في يوم من الأيام، لأنها لم تحبني ولا يهمها إذا أحببت غيرها، وعندما أصبح عمر ابني ال 3 سنوات كنت قد زهقت الحياة معها وأحببت إنسانة أخرى نادية الفتاة المغربية التي اجتمعت بها عند صديقتي السورية، صارحتها بذلك إلا أنها صارحتني هي أيضا بأنها حامل مجددا ولا تريديني أن انفصل عنها عندها شعرت بأنني وقعت في الفخ، كنت أشعر دائما بالحرية والصراحة الكاملة بيننا حتى إنني أذكر قبل أن تحمل بطفلي الأول بأنها طلبت مني رسميا أن أبحث عن فتاة أخرى لأنها لم تعد تحبني أو شبعت مني وتريد التغيير حتى قالت لي إذا كنت غير قادر لربما استطاعت أن تعرفني على فتاة أخرى من صديقاتها، عندها غضبت وخرجت من المنزل لا أنوي على شيء، كان الوقت صباحا، مشيت في الطرقات على غير هدى حيث قادتني قدماي إلى حديقة جميلة بجانب بيتي تدعى بيتشومو عندها رأيت فتاة 20 أو 22 عاما، 160 سم، شعر طويل أسود جميلة وجذابة ببشرتها السمراء وجسمها المشدود تنظر الى خريطة كانت في يدها وإلى اسم الشارع فعرضت عليها مساعدتي فابتسمت ورحبت بمساعدتي بلغة فرنسية ضعيفة حيث اتضح لي فيما بعد بأنها فتاة اسبانية وهي في سياحة وقد ضاعت وتريد العودة إلى فندقها، وجدتها فرصة لأثبت لصديقتي سيلين بأني قادر على تدبير أموري بنفسي ولا أحتاج إلى مساعدتها، فعزمتها على فنجان قهوة عندي في المنزل وشرحت لها بأني أعيش مع صديقتي ولا خوف من دخولها لمنزلي، وبعد تردد قبلت على شرط أن لا أدخل المنزل بمفتاحي بل أرن الجرس لكي تفتح صديقتي الباب فوافقتها على ذلك وذهبنا إلى المنزل ورنيت الجرس وفتحت صديقتي الباب، نظرت إلى الفتاة فوجدت علامات الارتياح بادية على وجهها ونظرت إلى صديقتي سيلين فوجدت علامات التساؤل على وجهها فأسرعت بتقديمهما لبعض، صديقتي التي أعيش معها، هذه الفتاة ضائعة وقد عزمتها على فنجان قهوة، دخلنا

وأسرعت سيلين لعمل فنجانين من القهوة وهي ترمقني بنظرات فيها شيئا من الإعجاب أو الغيرة أو بشعورها بأني انتصرت عليها لا أعلم ولكني قدمت لها البرهان بأنني أستطيع أن أكون كزانوفا إذا أردت، أما الفتاة الاسبانية فقد دونت عنواني وأخذت عنوانها في اسبانيا على أمل المراسلة، تغيرت معاملة سيلين معي من ذلك اليوم، وأصبحت أكتب الرسائل لصديقتي الجديدة الاسبانية وهي تكتب لي كل أسبوع تقريبا، إلى أن حبلت سيلين وجاءت بطفلي، كتبت رسالة إلى الاسبانية لأخبرها بالحدث السعيد ولكني إلى الآن لم أتلق منها أي رد، عندها علمت بأن صديقتي الاسبانية كانت ترسم المستقبل معي وأنا أعيش في عالم آخر أعتبرها مجرد صديقة كما كنت أعتقد ومؤمن بالصداقة البريئة بين الشباب والبنات.

عندما أحسست بأني وقعت في الفخ مع سيلين طلبت منها التخلص من الطفل الثاني قبل أن يتكون في بطنها، وتركت المنزل إلى الأبد، وأصبحت أرى طفلي مرة كل أسبوع وتخلصت صديقتي من الطفل الجديد رغما عنها باعتقادها بأني ربما أعود إليها أو لأني غير مستعد لاستقبال طفل آخر بحياتي أو خوفي من المستقبل معها، كنت أراها كل أسبوع مع طفلي وكان ضميري يعذبني كيف هجرتها مع طفلي وكنت أشعر دائما بحاجتي للبكاء ولكني لم أستطع، أشرد ساعات وساعات، كنت أدفع لها اجرة منزلها مع النفقات لها وللطفل ربما لكي ارضي ضميري الذي يعذبني ليلا نهار، وخاصة عندما ذهبت لعندها يوما لأرى ابني فلم أجدها فتوقعت أنها ذهبت إلى الحديقة الجميلة بجانب المنزل وفعلا رأيتها هناك وحيدة تراقب ابني الذي يلعب مع بقية الأولاد الذين جاؤوا مع ذويهم، كانوا يضحكون لأطفالهم ليشجعوهم على متابعة لعبهم ويطمئنونهم بأنهم مراقبين من ذويهم وباستطاعتهم اللعب بأمان أما ابني فيرى أمه والحزن بادي على وجهها وهي تنظر دون أن ترى شيئا، تقدمت نحوها ولكنها لم تراني، جلست على المقعد بجانبها فلم تشعر بي إلا عندما بادرتها الحديث، نظرت إلي بعيون دامعة ولم تنطق بحرف، وبعد إلحاحي لأن تتكلم قالت لي بأنها لا تلومني لأنها لم تستطيع الاحتفاظ بي وتتمنى لي أياما جميلة ولكن كل ما تطلبه مني هو التواصل الدائم مع ابني لأنه متعلق بي، في هذه الأثناء لمحني ابني وجرى نحوي وهو يصيح بأعلى صوته بابا بابا وقفز في حضني وأنا أقبله وأخفي وجهي بمعطفه حتى لا تفضحني دموعي ونظرت إلى سيلين فإذا هي تنظر بعيدا إلى الجانب الآخر وتحاول مسح دموعها قبل أن أراها، ماذا فعلت يا إلهي لماذا تركت سيلين وطفلي الصغير لا وبل طلبت منها التخلص من الطفل الثاني، ماذا كان ذنب طفلي الثاني لكي أمنعه من الحياة، إن الله يوهب الحياة لمن يشاء وأنا أقف ضد إرادة الآلهة، ماذا أفعل يا

إلهي هل أعود إلى سيلين ولكن لا شيء يجمعنا إلا هذا الطفل البريء الذي لا يدري بما يدور حوله كما أني منجذب الى نادية وأعتقد بأني أحببتها كما أعتقد بانها تبادلني نفس الشعور بالرغم من معرفتها بسيلين والطفل البريء، كنت أستيقظ في الخامسة صباحا لأركب سيارتي وأذهب الى شركة الشحن التي اعمل بها وأركن سيارتي وأركب شاحنتي بعد ملؤها بالبضائع لأوزعها طيلة اليوم على أصحابها، كنت أشرد كثيرا ومن حسن الحظ بأن عملي هذا كان يساعدني على أن لا أشرد كثيرا بسبب قيادتي للشاحنة وبحثي الدائم على العناوين، وأنتهي في المساء لأعود الى صديقتي الجديدة نادية التي أصبحت زوجتي فيما بعد وأنجبت منها بنت وصبي.

مضت الأيام وعادت سيلين إلى ضيعتها مع ابني الذي لم أعد أراه إلا نادرا لبعد المسافة بيننا التي قستها على عداد سيارتي حيث بلغت ال 500 كم أي ما يقارب الخمس ساعات طريق سواء بالسيارة أو بالقطار.

كنت أذهب لزيارته في العطل [يومي السبت والأحد] أحيانا بسيارتي وأحيانا بالقطار، أنطلق في الصباح لأصل ظهرا وأقضي بعض الوقت مع ابني ثم أعود في المساء إلى باريس لأصل بيتي منهكا من التعب والسفر.

عاشت سيلين وحيدة مع ابنها تعمل وتعتني بطفلنا، عندما بلغ ابني العشرون عاما علمت أن والدته سيلين مريضة وأنها قد أصيبت بتورم سرطاني في رأسها، وأصبحت أيامها معدودة، دفعت سيلين ابني لكي يستقر وحده بمنزل في وسط المدينة التي تسكن بها، لكي يتعود على الحياة وحده، وقد بدأ ابني بالعمل والاعتماد على نفسه، وبعد عامين تقريبا وفي أحد الأيام ذهب ابني لرؤية والدته صباحا وكان يملك مفتاحا للمنزل ولكنه لم يستطع الدخول إلى منزل والدته لوجود المفتاح بالقفل من الداخل ووالدته لا تجيب على نداءات ابنها، وكان كلبها يعوي باستمرار وكأنه يبكي أو يطلب النجدة، فتوقع بأن مكروها قد أصاب والدته، فأسرع ابني واتصل بالإطفاء حيث جاؤوا بأقصى سرعة ومددوا سلما إلى الطابق الثالث حيث تسكن سيلين وكسروا النافذة ودخلوا المنزل حيث وجدوا سيلين ممددة على الأرض وغائبة عن الوعي، نقلوها مباشرة إلى المستشفى حيث زارها ابني بعدما استيقظت وتكلمت قليلا وكانت متعبة جدا فتركها ابني لتنام على أمل اللقاء في اليوم الثاني، وكان هذا آخر لقاء بين ابني ووالدته حيث توفيت سيلين بالمستشفى.

وضعوا والدته في مكان مخصص للموتى، عبارة عن غرف صغيرة تحوي سريرا يرقد علية الميت بكامل لباسه، يستطيع الناس زيارة موتاهم فيها، وعلى باب الغرفة توجد طاولة وعليها دفتر كبير لتدوين عبارات الحزن وأسماء الزائرين، كان ابني يقضي وقتا طويلا وحده مع والدته مساء قبل أن يعود الى منزله منهك القوى مليء بالحزن يبكي دون توقف، اتصل بي ليخبرني بفقدان أقرب الناس إليه، عندما وصلت لعنده في اليوم الثاني، ذهبت معه لأرى سيلين راقدة داخل هذه الغرفة بدون حراك، كانت وكأنها نائمة، بشعرها الأبيض القصير ووجهها الذي أصابه بعض التجاعيد معلنا مرور الزمن عليها، سألني ابني إذا كنت أريد أن أبقى وحيدا معها بعض الوقت فأجبته بالقبول، خرج لينتظرني بالخارج وبقيت وحدي معها، مسكت يدها الباردة ونظرت لعينيها المغمضتين، وبدأ شريط من الذكريات يمر ببالي، ضحكتها وصمتها وكلامها والأحداث التي مرت علينا، لا أعلم كم من الوقت قضيته بقربها حيث سمعت طرقا على الباب وكان ابني يسألني هل كل شيء على ما يرام.

بعد يومين حان موعد دفنها بعدما زارها الكثير من الإخوة والأخوات وأبناء العموم والعمات والخالات والأصدقاء والمحبين علمت هذا من دفتر الملاحظات الموجود أمام باب غرفتها، صعدت مع ابني في سيارتي لألحق سيارة الموتى التي تقل سيلين إلى قرية تبعد حواي 40 كلم حيث يوارى مثواها الأخير بقرب والدها المتوفي منذ عشرون عاما، وصلنا إلى مكان كبير كأنه صالة عرض توجد فيه كراسي كثيرة وشاشة كبيرة عرض عليها الكثير من صور ذكريات سيلين وكنت معها في الصور في الكثير من الذكريات، ثم بدأ مراسيم الوداع حيث ادخل تابوت سيلين إلى فرن ضخم مع الورود التي تغطيه ليتحول إلى رماد بعد ساعة ونصف، ووضع الرماد في صندوق صغير وسلم إلى ابني الذي صعد معي بالسيارة وقال لي أنه لا يستطيع أن يتصور بأن والدته موجودة في هذا الصندوق الذي فوق ركبتيه وهو يبكي، فقلت له بأن أمه تعيش إلى الأبد في قلوبنا جميعا ولكنها تخلصت من آلامها ومرضها، وصلنا المقبرة ولمحت قبر والدها وقد خصصوا ركنا به يتسع لصندوق رماد سيلين، تذكرت والدها وكان إنسان عزيزا علي، فقد كنت أقضي معه وقتا جميلا نتحدث به بمواضيع شتى.

مراسيم العزاء والدفن في البلاد العربية يتم بصورة مختلفة حيث يدفن المتوفي بأسرع وقت حسب الشريعة الإسلامية التي تقول اكرام الميت دفنه بأقصى سرعة، وقد حدث بسبب ذلك عدة حالات بأن الميت لم يكن قد مات فعلا وقد دفن

حيا مثل ما حدث مع الممثل المصري صلاح قابيل حيث سمع حارس المقبرة أصواتا في الليل حسبها شياطين وأرواح بينما كانت صراخ هذا المسكين بعدما أفاق من غيبوبته ليجد نفسه مقبورا، قلت بأن على باب غرفة الميت توجد طاولة وعليها دفتر لتدوين أسماء الزائرين وعبارات الحزن، وبهذا يكون أهل الفقيد بهمهم وحزنهم وحدهم في بيوتهم بينما في البلاد العربية تفتح البيوت لتستقبل المعزيين وتمديد طاولات الأكل والشرب وكأن عقوبة الميت لأهله هو خدمة هؤلاء الناس ولمدة ثلاث أيام متتالية.

في فرانسا، أي مشكلة ممكن أن يصادفها الإنسان، باستطاعته أن يتصل برجال الإطفاء، إنسان وقع في الطريق مغمى عليه، إنسان يعاني من ألم حاد فجأة ولم يستطع أن يذهب إلى المستشفى، وطبعا إذا شب حريق بمكان ما، حوادث خطرة مما يتعرض لها المرء، كحوادث السير أو القطارات، أو لربما حالات خطرة لبعض الحيوانات الأليفة، كنت أسكن في الطابق الثالث مع سيلين قبل أن أرزق بطفلي، ولاحظت أن السقف عندي بدأ ينقط ماء، صعدت لعند جاري الذي يسكن في الطابق الرابع ولكني لم أجد أحدا، فاتصلت برجال الإطفاء حيث جاؤوا بأقصى سرعة، وأغلق الشارع من مرور السيارات، ومددوا سلما إلى الطابق الرابع وكسروا النافذة ودخلوا المنزل ليغلقوا صنبور المياه الذي كان السبب، إن الأضرار الملحقة سواء عندي أو عند جاري الذي كان قد ذهب لعدة أيام خارج منزله، هذه الأضرار يتكفل التأمين بدفع نفقات إصلاحها، ان كل منزل يؤمن عليه من الكثير من الكوارث الطبيعية والسرقة والحريق.

أصبحت أتقرب من ابني أكثر من الماضي بعد وفاة والدته، وأحاول التعمق بصداقته والتقرب بينه وبين اخوته، أصبحت ابنتي في الثاني والعشرين من عمرها وكانت قد تعرفت على شاب وسيم وقد أحبته وقررت الزواج به، وتقدم هذا الشاب لطلب يدها احتراما للعادات والتقاليد العربية، وجاء ابني ليحضر حفلة زفاف اخته ويشاركها فرحتها مع أخوه الأصغر الذي يصغره بخمس سنوات وقد نشأت بينهم صداقة قوية أفتخر بها لأنها جمعت بين أبنائي الثلاث.

الإقامة

عندما أتيت إلى فرانسا بفيزا طالب، قدمت أوراقي للجامعة لدراسة الدكتوراه في العلوم الزراعية وبعد دراسة الأوراق المقدمة قالوا لي أن دراستي في سورية يعادل السنة الثانية في الجامعة عندهم ويجب دراسة اللغة الفرنسية عاما تقريبا لكي أستطيع التسجيل في الجامعة، حصلت على إقامة لمدة سنة درست خلالها اللغة الفرنسية ثم رجعت الى الجامعة لكي أسجل فيها على الأقل للحصول على إقامة جديدة لأن إقامتي أوشكت على الانتهاء، ولكن الجامعة طلبت مني الإقامة عاما جديدا لكي أستطيع التسجيل، فذهبت إلى مركز الهجرة والجوازات للحصول على إقامة فطلبوا مني التسجيل في الجامعة لكي أحصل على الإقامة...

ما هذه المشكلة الصعبة الحل؟ كل يريد اثباتا من الآخر ولكن من الذي سيعطي الإثبات أولا؟ الجامعة لا تسجلني إلا بإقامة جديدة ومركز الهجرة والجوازات لا تجدد إقامتي إلا بتسجيل بالجامعة، عندها اقترحت صديقتي الجزائرية الزواج من فرنسية لكي أحصل على إقامة، كانت لصديقتي الجزائرية صديقة فرنسية وافقت على الزواج مني مقابل مبلغا من المال للحصول على الإقامة، تزوجتها وقدمت الأوراق للحصول على إقامة جديدة، أعطوني عاما جديدا يتحققون خلاله من زواجي هل هو صحيح أم من أجل الحصول على الإقامة فقط، ذهبت للجامعة لكي أسجل فيها بعد حصولي على الإقامة فطلبوا مني مبلغا كبيرا من المال ودوام يمتد إلى 15 ساعة في اليوم بين العملي والنظري مما دعاني للتفكير مليا قبل الاقدام على أي شيء، بما أني حصلت على الإقامة الآن فإن بإمكاني العمل عاما أو أكثر لأستطيع متابعة دراستي دون أن أعتمد على أحد، وبعد أن انتهى العام عدت لأجدد إقامتي، إن كل منطقة في فرنسا لها مركزا للهجرة والجوازات، والمنطقة التي كنت أسكن بها مع صديقتي الجزائرية تابعة لمركز يدعى بوبيني وهي تبعد مسافة ساعة بالمواصلات العمومية، ويجب الحضور باكرا لأخذ دورا للدخول بسبب العدد الهائل من الأجانب الذين يحاولون تحسين أوضاعهم مثلي، تفتح الأبواب الساعة التاسعة صباحا والعالم تقف بالدور منذ طلوع الفجر أو قبله، لأنهم لا يستقبلون إلا عددا قليلا من الأجانب فقط أما الباقي فعليهم العودة مرة أخرى، في هذه الأثناء كنت قد خرجت من المستشفى ولا أملك القوة اللازمة

لتحمل هذا التعب ولكني تحاملت على نفسي وأصبحت أذهب كل يوم تقريبا لآخذ دورا عسى أن أستطيع الدخول وكل يوم أذهب أبكر من اليوم السابق إلى أن ذهبت ذات يوم واستطعت الركوب بأول مترو يتحرك وكانت الساعة الخامسة والنصف صباحا لأصل أمام أبواب الهجرة والجوازات لأقف بالدور لغاية الساعة التاسعة حيث فتحت الأبواب واستطعت الدخول أخيرا ضمن العدد القليل من الأجانب وحصلت على إقامة لثلاث شهور فقط، وأصبحت أجدد إقامتي كل ثلاث شهور وبنفس الكابوس الذي عانيته كل مرة، مرت علي سبع سنوات لم أستطع أن أزور أهلي في سورية ولم أستطع السفر إلى أي مكان بسبب الإقامة لأن السفر بحاجة إلى طلب الإذن بالمغادرة والعودة إلى فرنسا وإقامتي لا تسمح لي بذلك، لم يكن متوفرا في ذلك الوقت تسهيلات الهواتف المحمولة أو التواصل الاجتماعي أو الأنترنيت، كل ما كان موجودا هو تلفونات الشوارع، وكل تلفون يوجد أمامه عدة أشخاص ينتظرون أدوارهم لعمل مكالمة، والتلفونات تعمل بالعملات المعدنية من فئة الفرنكات الفرنسية وكل مخابرة على حسب بعدها تتطلب مبلغا من المال، مثلا عندما اتصل بسورية هذا إذا علق الخط يجب أن أضع كل دقيقة خمس فرنكات مما يعادل ثمن فنجان من القهوة في أحد المقاهي، ويجب أن أكون متسلحا بكمية هائلة من السيولة المعدنية حتى لا ينقطع الخط، كنت أقف بالدور أو أبحث عن هاتف لا يوجد الكثير من الأشخاص لأتصل بسورية وأحاول الاتصال عدة مرات لكي يعلق الخط وعندما أسمع رنة الهاتف من الطرف الآخر يبدأ قلبي بالخفقان بقوة من شدة حنيني واشتياقي ومن شدة عذابي وتعبي وحيدا في هذه الغربة، وعندما أسمع كلمة ألو من الطرف الآخر أحاول الرد عليه ولكن تنحبس الكلمات وتنفر الدمعة من عيني ولم أستطع الرد إلا بعد عدة لحظات أشعر بها تمر ثقيلة وبطيئة ويخرج أخيرا صوتي متلعثما ومخنوقا وأقول الو ويرد علي الطرف الآخر ألو الو كأنه لم يسمع حراشة صوتي المخنوق بانفعالاتي، ويجب أن لا أنسى امداد التلفون بالعملات المعدنية بشكل متواصل حتى لا ينقطع الخط....

لم أعد أحتمل حياتي في فرانسا، مرضي الذي منعني من العمل وكابوس تجديد الإقامة كل ثلاثة أشهر وبعدي عن وطني وأهلي وأصدقائي، ذهبت إلى مركز الهجرة والجوازات لكي أطلب الإذن بمغادرة فرانسا للسفر إلى سورية وثم العودة إلى فرانسا، فقالت لي الموظفة بأنها لا تستطيع إعطائي الإذن لأن مدة إقامتي قصيرة لا تسمح بذلك فقلت لها أعطني الإذن بالمغادرة فقط فأنا لم أعد أرغب بالعودة إلى فرانسا أي روحة بلا رجعة فقالت لي لا أستطيع ذلك لأن المديرية قد

اكتشفت بأن زواجك كان حيلة للحصول على الإقامة وقد أرسلت لك المديرية رسالة مسجلة تطلب منك مغادرة الأراضي الفرنسية نهائيا وبموجب هذه الرسالة تستطيع المغادرة لهذا يجب أن تنتظر لكي تستلم هذه الرسالة.

عدت الى المنزل الذي كنت اقطنه مع صديقتي الجزائرية وكانت على شفا الانهيار العصبي الذي أصبح يأتيها كل فترة قصيرة فلم أخبرها على ما حصل حتى لا أزيدها هما فوق ما تعانيه، ولم يعد أمامي سوى انتظار هذه الرسالة المشؤومة، منذ صغري كنت عنيدا ولا ارضخ للأوامر بسهولة وانتابني غضب عارم وبدأت أشعر برغبة الانتقام ولكن من مَن؟ كانت صديقتي الفرنسية سيلين قد وجدت الاستديو في باريس فانتقلت لعندها لأترك صديقتي الجزائرية ترتاح وحدها ونقلت عنواني إلى باريس التي لها مركزا آخر للهجرة والجوازات يقع في مركز العاصمة الفرنسية وطلبت تجديد الإقامة وكانت الموظفة التي أخذت أوراقي لطيفة جدا تبلغ من العمر الخمسين أو ما فوق وأحسست بعاطفة الأمومة منها ودرست إضبارتي وقالت لي يجب أن يكون شيئا مشتركا بينك وبين زوجتك لنستطيع اعطائك الإقامة فقلت لها مثل ماذا فقالت لي حساب مشترك بينك وبينها في البنك ، فأسرعت لأجتمع مع زوجتي الفرنسية التي من الصعب الاجتماع معها من كثرة مشاكلها مع الدولة بسبب تهربها من دفع الضرائب وعدم وجود عنوان ثابت لها وهي تعمل بالخفاء وتحب رجلا متزوج وله أطفال وهو يضحك عليها ليقضي بعض الأوقات معها وهي تعلم ذلك ولكنها راضية بسبب حبها له، أخيرا أقنعتها بفتح حساب مشترك في البنك مقابل المال طبعا لأنني كلما احتجت شيئا منها لإتمام أوراقي للإقامة تطلب مني المال مع العلم بأني دفعت لها كل ما اتفقنا عليه للزواج وأكثر، افتتحت الحساب المشترك في أحد البنوك وقالوا لي بأن يجب عليهم أن يتحققوا من سيرتنا هل لنا مشاكل مالية أو دين هاربين منه أو أي شيء آخر، من عادة الفرنسيين ارسال رسالة تأكيد للمقابلة التي وقعت والسبب منها أو حتى ربما تكون مخابرة هاتفية أو بقيد البحث من الجهات التي يتم التعاقد معها أو التي جرى معها المقابلة لمشروع ما، وقد أرسل لي البنك رسالة في اليوم الثاني تثبت فتح الحساب مؤقتا في البنك باسمي واسمها ريثما يتم التحقق من موقفينا والكشف عن اسمينا في البنك المركزي الفرنسي ليوافقوا على فتح الحساب بشكل قانوني، أسرعت لعند الموظفة لأعطيها الورقة المؤقتة لفتح الحساب فضمتها إلى أوراقي وقالت لي بأن كل شيء على ما يرام وليس لي إلا انتظار الإقامة عدت إلى منزلي مسرورا وبدأت أتفاءل قليلا وإذ أستلم رسالة بعد يومين في صندوق البريد التابع لي رسالة من البنك يعتذر فيه عن اغلاق حسابي

لسبب سوء سمعة زوجتي المالية لأنها كتبت عدة شيكات بدون رصيد والبنك المركزي الفرنسي منعها من أن تحصل على حساب جديد ومن أي بنك كان، قلت لنفسي هذا يمكن أن يكون خبرا سعيدا إذا كنت سأحصل على الإقامة وإلا سأكون بوضع صعب لا أحسد عليه، بعد أسبوع جاءتني رسالة يستدعوني فيها لاستلام الإقامة الجديدة، يا للفرحة العارمة التي أصابتني لأن الاقامة كانت 10 سنوات ووداعا للتجديد في بوبيني كل ثلاث أشهر تحت المطر والبرد والوقوف ساعات بالدور قبل أن يفتحوا الأبواب لاستقبال عدد قليل من الأجانب، الآن أصبح باستطاعتي السفر بحرية والحصول على المزايا الكثيرة للعمل بدون أي عائق فافتتحت شركة شحن باسمي واشتريت شاحنة بالتقسيط لأعمل عليها وتيسرت أموري وبدأت أحب فرانسا وأهم شيء بدأت بمعاملة الطلاق على نفقتي الخاصة طبعا لأنفصل عن زوجتي التي بسببها تأخرت إقامتي لمدة سبع سنوات حتى أحصل عليها مع العلم أن من كان بوضعي حصل على الجنسية الفرنسية ليست الإقامة فقط.

زيارة الوطن

طلبت فيزا من الهجرة والجوازات للخروج والعودة إلى الأراضي الفرنسية بعد سبع سنين عانيت ما عانيت فيها وعاشرت الناس من جميع الأصناف والألوان وما عرفت السوريين على حقيقتهم إلا في فرانسا، اتضح لي بعضهم حاقدين أنانيين وآخرين لعوبين كذابين في كل شيء وآخرون هادئين مراقبين يُخاف منهم وقليل منهم ضحوكين صادقين قريبين من القلب، وحصلت على الفيزا بسهولة كوني حائز على إقامة 10 سنوات، حزمت أمتعتي واشتريت الهدايا لأهلي وبعض أصدقائي المقربين، وصلت إلى مطار دمشق ونزلت من الطائرة فوجدت نفسي في طابور طويل لختم جوازات السفر على نافذة صغيرة وراءها شرطي باللباس الرسمي وآخر باللباس المدني يجلس بجانبه يقوم بفحص جوازات السفر ثم يقدمها لزميله ليفحصها هو الآخر ثم يختمها، بدأ الشك يدخل في قلبي، لقد كنت في فرانسا طليق اللسان حرا بأفكاري أقول ما أفكر به أمدح وأزم ما أريد من السياسيين العرب والأجانب، لعل أحدهم سمعني واشتكى بي إلى الجهات المختصة وأسمي أصبح على الحدود مطلوبا لبعض الاستفسارات أو الاعتذارات أو الإدلاء ببعض المعلومات أو لأخذ ما يخصني من العقوبات أو ربما كنت مطلوبا الى الاحتياط لخدمة الجيش، يا إلهي ما هذه الورطة التي ورطت نفسي بها، وصل دوري وأعطيتهم جواز السفر السوري بعد ما كنت قد جددته من السفارة السورية بباريس، تفحصه وقارن إسمي مع جدول طويل من الأسماء التي كانت بحوزته ثم أعطاه لزميله لكي يقارن إسمي مع لائحة أخرى كانت لديه ثم ختم الجواز وأعطاني إياه وهو يرمقني بنظرات حادة، شكرته وانصرفت أتنفس الصعداء، أوقفني شخص آخر باللباس المدني أيضا وأخذ مني الجواز ليقارن إسمي مع لائحة أخرى كانت لديه، ثم شخص آخر بعد عدة أمتار ثم آخر إلى أن وصلت إلى المكان الذي يسترد المسافر فيه حقائبه، هالني منظرا لم آلفه بأي بلد بالعالم، جبال من حقائب السفر المركونة في كل زاوية من زوايا القاعة الكبيرة التي تدور في وسطها حقائب سفر المسافرين، فهمت كل شيء، إن كل شخص أوقفني ينتمي لجهة معينة من الجهات الأمنية المتعددة ليقارن إسمي مع لائحة الأسماء المطلوبين وهذه الجبال من الحقائب المكدسة فوق بعضها لأشخاص مثلي

جاؤوا ليروا أهاليهم بعد فترة غياب طويلة ولم يسعفهم الحظ للوصول إلى حقائبهم التي كانت تدور حينها في وسط هذه القاعة مثل حقائبي الآن، وقد مروا مثلي على الأشخاص الذين قارنوا أسمائهم مع لوائحهم ووجدوا التطابق واقتيدوا إلى أماكن مجهولة، إن هذه الجبال من الحقائب تدل على أصحابها المفقودين، في كل مطارات العالم أسمع عن مسافرين فقدوا حقائبهم إلا في سوريا، فالحقائب هنا تبحث عن أصحابها المفقودين، وجدت حقائبي وجمعتها لأخرج من الباب الرئيسي لأرى أهلي من بعيد ينتظرون خروجي فأوقفني شرطي وطلب مني فتح الحقائب للتفتيش، فتحت كل حقائبي وأخذ الشرطي يقلب ما بينها ويسألني ما هذا؟ إنها زجاجة عطر هدية، ها لديك ثلاث أو أربع وأرى إحداها تنزل إلى جيبه، ما هذا؟ إنه قميص لأخي هدية، ها لديك ثلاثة وأرى أحد القمصان تذهب إلى زميله الذي يراقب أمامه، أخيرا قال لي اقفل حقائبك واخرج، هنا شعرت بأني فعلا نجوت من كل هذه الحواجز التي وقفت عائقا أمامي، عندما خرجت تعرفت على أمي من بعيد لأنها لم تتغير كثيرا وأخي الكبير أيضا، وكلما اقترب أكثر منهم يعلو خفقان قلبي أكثر وأكثر، كانوا ينتظروني من وراء الحاجز الحديدي وطبعا ممنوع أن يتجاوزوه حتى وصلت لعندهم، اقتربت من أمي ولاحظت خطوطا على وجهها لم أراهما من قبل، خطوط السبع أعوام التي مضت دون أن أرى فيهم وجه أمي الحبيبة، أخذت امي بالأحضان والدموع تنهمر منها ومني ثم أخي الكبير وإذ بشاب اندفع نحو حقائبي ليأخذها ونظرت إليه فقال أخي الكبير هذا أخوك الصغير الذي تركته وكان في العاشرة من عمره والآن بعد سبع سنين طويلة رأيته أصبح رجلا، وصلت بيتنا الذي لايزال كما هو بحيطانه وأثاثه وذكرياته، والتقيت مع بقية العائلة التي كانت مجموعة كلها في انتظاري، الأولاد كبروا وتغيروا ولم أعد اعرفهم والكبار قد ارتسم على وجوههم بعض التجاعيد التي تذكرني بمرور السنين، وفي اليوم الثاني جاء الكثير من الأهل والأصدقاء لاستقبالي وشعرت بسعادة لا توصف بالرجوع إلى الوطن بغض النظر عن المعاملة التي تلقيتها بالمطار، عندما تسرحت من الجيش كان علي أن أنتظر هويتي الشخصية لأستلمها لأن السلطات تأخذها مني لانتهاء الخدمة العسكرية ثم تعيدها لي بعد الانتهاء من الخدمة العسكرية، ولكن موعد انتهاء الفيزا الفرنسية حينئذ أشرفت على الانتهاء ولم أستطع استلام هويتي الشخصية فقلت لنفسي سأسترجعها عندما أعود، والآن قد عدت، وفي اليوم الثالث من عودتي إلى سورية ذهبت إلى دائرة النفوس مع أخي الكبير لأستلم هويتي الشخصية.

على شباك صغير كان الموظف جالسا منهمكا في أوراقه عندما سألته عن هويتي فنظر إلى نظرة طويلة متسائلة وقال لي ما سمك فأعطيته إسمي فنهض من مكانه وذهب الى مكتبة ضخمة وراءه يبحث فيها ثم ذهب ليقابل شخصا آخر يعمل معه بالداخل ثم جاء هذا الشخص الآخر نحوي وكان منظره غير مطمئن له شوارب أكبر من وجهه وعيون متفحصة تتطاير منا الشرر وقال لي ستذهب مع هذين الرجلين لتأتي بالموافقة لتستلم هويتك وستعود بعد قليل وإذ برجلين محيطان بي من على اليمين وعلى اليسار يدعواني بلطف مصطنع ظاهر للعيان بأن أتبعهما أما أخي فلم أعد أراه وعلمت فيما بعد بأن أحدهم كان يطرح عليه الأسئلة بخصوصي، سرت مع هذين الشخصين واستقلنا سيارة أجرة فقلت لهم بأن الموظف في الداخل قال أن المكان قريب وليس بحاجة إلى سيارة اجرة فقالوا فعلا قريب ولكن للسرعة حتى نستطيع العودة قبل انتهاء الدوام، جواب مقنع ولكني غير مرتاح لما يجري، خصوصا بعد ما سارت فينا التكسي مسافة طويلة، بعد نصف ساعة توقفت سيارة الأجرة امام بناء ضخم يحوي في داخله عدة أبنية كل بناء فيها مؤلف من ثلاث طوابق حيث دعاني أحدهم للنزول من السيارة بقوله لقد وصلنا، كنت أراقب كل ما يجري حولي وأحسست بأني مسير لا مخير ومجبر على اطاعتهما، دخلنا المبنى ومشينا مسافة طويلة لوصلنا إلى بناء قذر ودخلنا من المدخل الرئيسي لألاحظ درجا إلى الأسفل وآخر الى الأعلى، وسمعت أصواتا وصراخا وبكاء وتألما تأتي من الأسفل فتوقعت بأنها قاعات الاستقبال الخاصة بهم وتوقعت بأن الرجلين سوف يقودانني إلى هذه القاعات، ولكنهما صعدا بي الى الطابق الثاني وكان عبارة عن مساحة فارغة من أي أثاث أو كرسي وفي آخرها غرفة تحوي على مكتبين ورجلين يعملا خلفهما، دعاني أحد الرجلين للانتظار وأعطوا ورقة للرجل الجالس وراء المكتب ثم انصرفوا وتركوني واقفا أمام الباب، بعد فترة دعاني الرجل إلى الدخول وبدأ يسألني عن سبب سفري إلى فرانسا ومع من أعمل وأين أسكن وأين أنام ومن هم أصدقائي وما هي أسمائهم وماذا يعملون وهل اهتم بالسياسة وماذا أفكر بالأديان وما هو ديني وما هي طائفتي... ثم طلب مني أن أنتظر خارج الغرفة، كان بالخارج أربعة أشخاص ينتظرون مثلي وقد أعياهم التعب أحدهم بعمر والدي جلس على الأرض الوسخة والآخر في عمر أخي الصغير ذو السبعة عشر ربيعا في وضعية القرفصاء وآخر لم يتجاوز الأربعين من عمره متكئ على الحائط وآخر في سني يحاول المشي ليريح قدميه من وضعية القرفصاء، حاولت سؤالهم ولكن لاحظت الصمت الرهيب والخوف مرسوم على وجوههم، ففضلت السكوت و الانتظار.

مرت الساعات بطيئة ولم أعد أعلم أي الأوضاع ستريحني القرفصاء او السير ببطء أو احتضان الحائط أو الجلوس على القذارة، وتجرأت وسألت أحدهم ماذا ننتظر فسمعت صوتا من داخل الغرفة يشتم بصوت عالي ويقول: سكوت.

كانت الساعة العاشرة أو الحادية عشر صباحا عندما دخلت هذا المكان والآن تجاوزت الساعة الثامنة مساء ونحن لا نزال واقفين ننتظر، خرج أحد العاملين وراء المكتب وقال لنا سأدعكم تذهبون إلى بيوتكم على أن تعودوا غدا الساعة الثامنة صباحا إلى هنا وكل من يتأخر سينال عقابه.

عدت إلى المنزل منهك القوى وأهلي وأصدقائي ينتظرون قدومي بفارغ الصبر وكل منهم يحاول الاتصال بمعارفه لكي يتوسطوا لي ويساعدوني في مصيبتي، شكرتهم جميعا واعتذرت منهم لأخلد إلى النوم بعد أن تناولت شيئا من الطعام بعد يوم صيام مكرها.

في اليوم الثاني كنت في الموعد تماما الساعة الثامنة صباحا حيث بدأ الاجتماع الصباحي لعناصر الجيش والأجهزة الأمنية المتواجدة هناك وسمعتهم يرددون شعار حزب البعث العربي الاشتراكي وبالأخير رددوا جملة قائدنا حافظ الأسد وإلى الأبد. هنا شعرت بشخصيتي تتلاشى وشعرت بإنسانيتي تتألم وشعرت بكرامتي تودعني وأيقنت أنني لا شيء في وطني، إنه سجن كبير لكل السوريين، الداخل إليه مفقود والخارج منه مولود. إن الرئيس الذي بايعوه رئيسا إلى الأبد أو بالأحرى الذي احتفظ بكرسي الرئاسة رغما عن كل الشعب السوري كان السبب في ضياع الجولان السوري لإسرائيل، وتحويل سورية إلى سجن كبير وكل مشتبه يودع السجن حتى ولو ثبتت براءته وقتل وتدمير مدينة حماة بكاملها بسبب ثورة الإخوان المسلمين ضد حكم الأسد الذين هربوا من المدينة وعلق الشعب الأعزل البريء بقبضة الديكتاتور المجرم وهو وأخيه رفعت الأسد الذين انتقما بقتل وتدمير سجن تدمر بكامله و بكل المساجين بداخله مع حراسهم وهو المسؤول عن ضياع وتخلف الشعب السوري بما حذف من العلوم والمناهج التعليمية المفيدة ووضع بدلا عنها ما يغسل فيه عقول البشر وكل من يقاوم مصيره الاختفاء القصري أو الاغتيال وهو المسؤول عن إبادة الفلسطينيين بلبنان بالاشتراك مع العدو الصهيوني وهو المسؤول عن زرع الطائفية التي حصدت الألوف بل الملايين من الشعوب العربية.

مرت الساعات لا أعلم كيف، لقد فقدت شيئا لا أعلم ما هو ولكني أعلم بأني لم أعد أشعر بالجوع ولا العطش ولا التعب ولم أعد أفكر بشيء حتى أتفاجأ بالرجل يقول لنا في المساء اذهبوا الى بيوتكم ولقاؤنا غدا بنفس الوقت.

كنت قد حصلت على فيزا لمغادرة الأراضي الفرنسية والعودة إليها لمدة شهرا كاملا، وبقيت أتردد كل يوم لعند الأجهزة الأمنية لأقف وأنتظر الموافقة الأمنية لاستلام هويتي الشخصية، مضى أكثر من عشرين يوما وبدأ القلق يساورني وبدأت أخاف من التأخر عن موعد سفري لم أعد ارغب بالسياحة في بلدي ولم أعد أرغب في مقابلة أهلي ولا أصدقائي ولا استرجاع الذكريات الجميلة التي قضيتها في طفولتي وشبابي لم أعد أرغب إلا بشيئا واحدا هو العودة إلى وطني الجديد فرانسا.

يجب علي استرجاع هويتي الشخصية لأستطيع طلب فيزا الخروج من سورية من الهجرة والجوازات السورية، وبدونها لن أستطيع السفر وستنتهي الفيزا لدخول فرانسا مجددا، وإذ بمجند يعمل هناك جاء يسأل عني وعلمت أن أحد الوساطات قد أثمرت وقال لي بأن الموافقة لاستلام الهوية الشخصية يجب أن تمر على كل الدوائر الرسمية والأجهزة الأمنية ليوقعوا على الموافقة وهذا يتطلب شهورا عديدة، لهذا أعاد كتابة طلب الموافقة وأرسلها إلى مدير الفرع مباشرة ليوقع عليها، الذي طلب مقابلتي وسألني أسئلة وصرفني ليمضي على الموافقة التي أرسلها لي مع ضابط آخر وأنا انتظر بالخارج، أخذتها وذهبت في اليوم الثاني إلى إدارة النفوس لأستلم الهوية ومن ثم الى إدارة الهجرة والجوازات للحصول على فيزا الخروج ثم تأكيد الحجز بالطائرة ثم إلى المطار وودعت أهلي ودخلت في دوامة مقارنة الأسماء مع اللوائح السوداء التي كانت مع رجال الأمن حتى وصلت الطائرة وأنا لا أصدق نفسي إلا عندما حلقت الطائرة بالجو.

وصلت فرانسا في مطار أورلي في باريس وشعرت بأن الشرطة تبتسم لي لتقول الحمد لله على السلامة واجتاحتني رغبة بتقبيل كل رجال الأمن والعاملين في المطار وأصبحت أبتسم إلى كل الناس وشعرت بكرامتي وحريتي التي كدت أن أفقدهما ولاحظت الفرق الهائل بين معاملة أبناء وطني لي وبين معاملة الدول المتقدمة واحترامهم للإنسان والإنسانية.

العمل

عندما وصلت باريس أول مرة، نزلت في الفندق الذي يعمل به صديقي عادل، كانت الغرفة صغيرة في الطابق الخامس وبجانبها عدة غرف صغيرة وكل هذه الغرف لا تصلح للآجار لأنها كانت مخصصة للعاملين في هذا الفندق فقط، تعرفت على باريس ومعالمها الحضارية والتاريخية والإنسانية والثقافية، كوني جديدا وليس لي عملا إلا السياحة في هذا البلد الرائع، اشترى صاحب الفندق مطعما وبار لتقديم المشروبات الساخنة والباردة والكحول بكافة أنواعه، وبما أن صديقي عادل يعلم كيف يدير هذا البار فقد انتقل الى العمل في هذا المطعم وعرض علي صاحب الفندق العمل مكان صديقي عادل، كان الدوام 24 ساعة عمل و 24 ساعة راحة، طبعا كنت أنام في الليل في قاعة الاستقبال بعد أن أغلق أبواب الفندق، وإذا تأخر أحد النزلاء أو أتى أحدهم ليستأجر غرفة أنهض من نومي لاستقباله، عملت في هذا الفندق سنتان وبراتب لا يكفي ثمن الطعام الذي آكله، كوني مقيم مجانا فيه، كان الراتب المتوسط لأي عامل يتراوح بين 7000 و8000 فرنك فرنسي أما راتبي فكان 2000 فرنك فقط وغير مصرح عنه أي بالأسود، ومن خلال عملي هذا تعرفت على صديقتي الجزائرية التي كانت تعمل في محل لبيع الألبسة الجاهزة بجانب الفندق، المحل تابع لشركة فرنسية وكانت هذه الجزائرية صديقة لمديرة الشركة الفرنسية التي تعرفت عليها أيضا وعرضت علي العمل معها، حيث اعطتني بضاعة لأبيعها وأسدد ثمنها عندما انتهي من بيعها، انتقلت للعيش مع صديقتي الجزائرية واشتريت سيارة لنقل البضائع وبيعها في أسواق فرانسا المؤقتة التي تدعى ال [مارشيه] مما أتاح لي الفرصة للتعرف على الكثير من محافظات وقرى فرانسا، والمارشيه بالفرنسية تعني السير، ومن هنا أعتقد جاءت التسمية لأن هذه الأسواق لها أيام محددة وساعات محددة تأتي التجار إلى المكان المخصص للمارشيه باليوم والساعة المحددة وتفرد بضائعها المتنوعة بين اللحوم والخضار والفواكه والمعجنات والملابس وأدوات التجميل وكل ما يخطر على بال التجار ويبدأ المارة بالتردد على هذه المارشيه لما تتميز بالأسعار الرخيصة التي تنقص عن أسعار المحلات الثابتة وعندما ينتهي دوام المارشيه يلم التجار ما بقي من بضاعتهم ويرحلون عن المكان المخصص لهم

لتأتي شاحنات التنظيف لتنظف ما بقي من مخلفاتهم من قشور وأوراق وخضار وفواكه فاسدة وعلب فارغة.

كنت أتنقل من محافظة لمحافظة ومن قرية لقرية أنام في سيارتي وآكل في المطاعم الرخيصة وكنت اصرف مما كنت أبيع ومرت أيام كنت لا أبيع شيئا بل كنت أدفع اجرة المكان الذي أفرد فيه بضاعتي للبيع من جيبي، وعدت الى بيتي بعد شهر ونصف بعد أن نفذت كل بضاعتي وصرفت معظم المال الذي ربحته على طعامي ووقود لسيارتي، ولم يبقى معي سوى ثمن البضاعة التي أخذتها بالدين، تركت المارشيه لعدم توفقي بها وأحببت أن أعمل على سيارة أجرة كالتي كنت أعمل عليها قبل مجيئي إلى فرانسا، فقالوا لي بأنه يجب أن أعمل دورة مدتها شهر للتعرف على شوارع باريس وضواحيها والقوانين الفرنسية المتعلقة بهذه المهنة ويوجد فحص في نهاية الدورة فإذا نجحت بالنظري والعملي سأحصل على شهادة خاصة لقيادة سيارات الأجرة، تعلمت على شوارع باريس ومطاراتها المتعددة ومحطات القطارات فيها والمواقف الخاصة بسيارات الأجرة، عندما كنت سائق تكسي في سورية، كان كل ما يلزم هو الشهادة العمومية لقيادة جميع أنواع الآليات، أما هنا في فرانسا فإن كل نوع من أنواع الآليات لها شهادة خاصة بها، في هذه الدورة تعلمت أشياء لم تخطر على البال، بالرغم من معرفتي الجيدة في هذه المهنة ولكن شتان ما أعرفه في وطني وهنا، إن نظام العمل متاح للجميع بحيث أن كل سيارة أجرة تحوي عدادين واحد أمام السائق لمعرفة الأجرة وآخر في الخلف لكي يتسنى لشرطي المرور رؤيته لأنه يعطي التعليمات اللازمة عن السائق متى استلم عمله ومتى ينتهي والتاريخ ولا يحق لسائق التكسي أن يعمل أكثر من 10 ساعات في اليوم، أما فوق السيارة فتوجد ثلاث أضواء صغيرة وضوء كبير يدل على أن التكسي فارغة أم يوجد بداخلها زبون، أما الأضواء الصغيرة فهي تدل على سعر العداد، داخل باريس سعر عادي أما الضواحي القريبة فسعر أعلى قليلا والضواحي البعيدة سعر عالي جدا لأن الزبون يدفع عودة السائق فارغا إلى مكان عمله داخل باريس لأنه ممنوع عليه أن يعود ومعه زبون بسبب سيارات الأجرة التي تملئ الأماكن البعيدة عن باريس، حتى يتيح الفرصة لتلك السيارات بالعمل ولا يأخذ نصيب غيره، كما أن العمل داخل باريس له خصائصه أيضا فمثلا عندما يركب زبون من المطار فيأخذ زيادة عن العداد 10 فرنكات وكذلك محطات القطارات وكل حقيبة يحملها في الصندوق الخلفي عليه 5 فرنكات وهذا لتشجيع السائقين على التوجه إلى المحطات أو المطارات،

و يوجد في كل شارع موقفا لسيارات الأجرة وعليه تلفون مجانا يعطي تعليمات لأول سيارة لكي تتوجه إلى مكان معين لأخذ زبون يبحث عن تكسي، كما أن على سائق التكسي واجبات يجب القيام بها وحقوق يدافع عنها، فمثلا يستطيع رفض زبون إذا كانت ملابسه قذرة أو يحق له رفض صعود الحيوانات الأليفة الى سيارته ولكنه لا يستطيع رفض صعود أعمى مع كلبه، في نهاية الدورة رسبت بالنظري بسبب الأخطاء الإملائية الكثيرة وقالوا لي إذا كنت لا أعرف كيف يُكتب اسم الشارع فكيف سأستطيع العثور عليه من قاموس الخرائط؟ أما العملي فقد نجحت بالمرة الثانية حيث كنت في المرة الأولى بطيئا بالقيادة لأثبت لهم حرصي على راحة الزبون إذ قالوا لي بأن الزبون الذي يركب التكسي يكون مستعجلا فيجب القيادة بسرعة، تعلمت الدرس ولهذا أصبحت اقود بشكل سريع مع محافظتي على الامتثال لقوانين السير، طلبت فيما بعد أن أكون سائق شاحنة لشحن البضائع من مكان لآخر، عملت فحصا على باص ليروا قيادتي وأصبحت أسرع بالقيادة ليروا كيف أستطيع السيطرة على الباص وتوصيل البضاعة بسرعة مع احترامي لقوانين المرور ولكني رسبت أيضا وعندما سألت على السبب قالوا لي يجب أن اتخيل أن البضائع سهلة التلف وتتكسر على السرعة ويجب القيادة ببطء...

تعرفت على أشخاص مصريين يعملون في الدهان وعرضوا علي العمل معهم، عملت فترة من الزمان تعرفت خلالها على اخواننا العرب المصريين، وبدأت أتكلم اللغة المصرية التي بدت واضحة عندما أتكلم مع السوريين، وتركت العمل معهم لمشاجرتي الدائمة لحصولي على راتبي منهم، باعتباري أعمل بالأسود أي لا علم بالدولة الفرنسية بعملي هذا ولا دليل على أني أعمل معهم وباستطاعتهم الهروب دون أن يدفعوا لي شيئا وقد حدث فعلا مع مصريين بدون أوراق فرنسية نظامية أن عملوا أشهر دون أن يتقاضوا أجورهم، ولم يستطيعون عمل أي شيء، كنت أعرف مصريا عنده الكثير من العمال المصريين ولكني لم أعمل معه ابدا بل كان صديقا لي نسهر ونتسلى في أيام العطل، وفي يوم من الأيام وجدته الشرطة الفرنسية مقتولا أمام بيته بسكين واتضح بأن أحد عماله الذي يعمل عنده بدون أوراق نظامية طعنه عدة طعنات أدى الى موته بسبب عدم إعطائه راتبه.
أصبحت أعمل على حسابي الخاص أي أبحث عن بيوت لدهنها واصلاحها وآخذ الأجرة مباشرة من أصحاب هذه البيوت إلى أن أصبت بشلل نصفي ودخلت على أثرها المستشفى لأكثر من شهر.

في فرانسا جهات مختصة للعاطلين عن العمل، تدعى وكالة التوظيف الوطنية طبعا تابعين للدولة، تساعد الناس على إيجاد العمل الملائم لهم، وإذا لم يجد العاطل عن العمل عملا فإنه يتقاضى راتبا من عندهم يبلغ 70 في المئة من راتبه الذي كان يتقاضاه قبل أن يصبح عاطلا عن العمل ولمدة تتراوح بحسب المدة التي عمل بها، لأن كل من يعمل في فرانسا يخصص شيئا من راتبه لهذه الوكالة للتوظيف الوطنية كما يخصص شيئا آخر للتأمين الصحي وأيضا للتقاعد، كما أن هذه الوكالة عملها الرئيسي هو الاتصال بأصحاب الشركات والمعامل وكل الأعمال لإيجاد مكانا فارغا لترسل لهم أحد العاطلين عن العمل.

بعد خروجي من المستشفى واسترداد شيئا من قوتي تقدمت إلى هذه الوكالة لعلني أجد عملا بالأبيض أي ليتسنى لي أن أدفع مخصصاتي لهم من التأمين الصحي لما له من فائدة كبيرة ولوكالة العمل الوطنية والتقاعدية. الخ، إن التأمين الصحي قد دفع 70 بالمئة من تكاليف المستشفى الباهظ المقدر بحوالي 150.000 فرنك فرنسي أي ما يعادل ال 150.000 ليرة سورية بتلك الفترة أي عام 1987 عندما كانت الليرة السورية تعادل الفرنك الفرنسي أما الباقي فقد تبرعت به بلدية المنطقة التي كنت أسكن بها، بعد المقابلة التي أجريتها مع هذه الوكالة، ارسلوني إلى مكان ليفحصوا إمكانياتي بعمل الدهان، وبعد الفحوصات أعطوني شهادة بدرجة عامل عالي الكفاءة أي يحق لي أن أكون رئيس ورشة طبعا لأنني عملت مع المصريين وتعلمت أشياء كثيرة منهم.

طال انتظاري لإيجاد عملا عن طريقهم مع العلم بأني كنت أذهب كل صباح باكرا وأقرأ كل الإعلانات لعلي أجد عملا باختصاصي ولكن للأسف لا شيء، إن العاطلين عن العمل الذين يقرؤون الإعلانات مثلي عندما يجدون اعلانا يهمهم يأخذون هذا الإعلان ويدخلون لأخذ عنوان العمل ولأخذ الضوء الأخضر من هذه الوكالة، وبما أني كنت بأمس الحاجة إلى إيجاد أي عملا كان، فيجب أن أبحث عن شيئا آخر.

توجد في فرانسا محلات تدعى انتريم يتقدم إليها العاطل عن العمل والذي يريد إيجاد عمل باختصاصه ويقدم لها أوراقه الثبوتية وتاريخ وسيرة أعماله في فرانسا وتقوم هذه المحلات بالاتصال بأماكن عديدة للحصول على أمكنة فارغة للعمال لديها أو إحدى الشركات تتصل بهذه المحلات لتطلب منهم إيجاد عامل بالاختصاص المطلوب ولمدة معينة وطبعا تدفع هذه الشركات آجار هذا العامل المُستأجر الى هذه المحلات التي تدعى أنتريم وتقوم هذه المحلات بدفع أجرة

العامل بعد أن تأخذ عمولتها عليه، تقدمت الى إحدى هذه المحلات وأبرزت لهم أوراقي الثبوتية وطلبت أي عمل كان، قالت لي الموظفة أنه يوجد عملا كبستاني أعتني بالنباتات فوافقت فورا ولكنهم طلبوا مني دليلا على أنني عملت في هذه المهنة من قبل، فقلت لهم بأنني متخرج من كلية الزراعة بدمشق وعندي شهادات بذلك فاعتذروا وطلبوا مني أوراقا تثبت عملي في هذه المهنة، ولكنني لأملك أي دليل، سألوني أي المهن عملت بها وعندي دليلا على ذلك، فقلت لهم بأني لا أملك سوى ورقة فحص الوكالة الوطنية للتوظيف، فقبلوها ثم استدعوني بعد فترة لألتحق بالعمل في شركة فرنسية للدهان ولمدة ثلاث أسابيع، بعدها عملت في شركة أخرى لمدة أسبوعين وهكذا تنقلت من شركة لأخرى إلى أن عرضت علي احدى الشركات العمل معها بشكل دائم حيث تركت محلات الأنتريم وحصلت على عقد عمل وبقيت موظفا لهذه الشركة مدة 8 سنوات.

كان صديقي عادل قد افتتح شركة شحن وأصبح عنده شاحنة كبيرة يعمل عليها حيث كنت أنا أعمل كعامل دهان في الشركة الفرنسية، وفي يوم من الأيام اضطر عادل إلى السفر مع صديقته كاترين لمدة شهر وطلب مني أن أعمل مكانه حتى لا يخسر عمله لأنه تعاقد مع شركة من شركات الدولة، استلمت منه الشركة وعملت مكانه لمدة شهر كامل حيث عرضت علي هذه الشركة وتدعى سرنام وهي تابعة للدولة، أن أبقى أعمل معها فوعدتها بأني سأعود بعد أن أفتح شركة خاصة بي وهكذا كان، بما أني حاصل على كرت إقامة لمدة عشر سنوات فمن حقي أن أفتح شركة، قدمت استقالتي الى شركتي الفرنسية التي كنت أعمل معها بالدهان وافتتحت شركة شحن في غرفة التجارة مثل عادل واشتريت شاحنة جديدة من شركة مرسيدس الشهيرة حجم صندوقها 25 متر مكعب بالتقسيط ولم أدفع من ثمنها فرنك واحد، وأصبحنا نعمل معا كل في شركته عند الدولة وأدفع قسطا شهريا ثمنا للشاحنة 5000 فرنك.

بعد ثلاثة أعوام اتحدت أوربا وأصدروا قوانين جديدة شاملة لكل أوربا، من بينها هو أن على كل مدير شركة شحن [مثلي أنا] عنده شاحنة حجمها أكثر من 14 متر مكعب يجب عليه عمل دورة للاضطلاع على القوانين الاوربية الجديدة، طبعا لا مفر لي من عمل هذه الدورة لأن شاحنتي حجمها 25 مترا مكعب، ولكن بالرغم من أن الدورة تكلف بين 15 -20 ألف فرنك فرنسي إلا أن الأوراق المطلوبة للتسجيل مستحيل الحصول عليها منها شهادة كوني أوربيا أو جزائري الجنسية، وطبعا جنسيتي هي السورية، يجب البحث عن حل، وكان الحل الوحيد

هو تغيير اسم مالك الشاحنة من اسمي إلى اسم واحد جزائري أو أوربي الجنسية، بشرط أن يكون حائزا على شهادة من هذه الدورة، ولكني لم أعد أثق بأي إنسان، لأنني إذا نقلت ملكية الشاحنة إلى إنسان آخر وقام هذا الأخير ببيعها فماذا أنا فاعل؟ قررت إغلاق شركتي هذه وعدت إلى العمل كسائق براتب شهري لمدة سنة ثم تركت العمل لسوء تفاهم مع صاحب العمل، في هذه الأثناء استطعت الحصول على جهاز الكمبيوتر وأعجبني جدا وقررت أن أدرس صيانة الكمبيوتر فأقدمت على مراكز التوظيف الحكومية وعرضت عليهم رغبتي في هذه المهنة فطلبوا مني البحث عن مدرسة لتعلم هذه المهنة، وعندما وجدتها وعملت فيها فحصا مبداي لقبولي فيها أرسلوا موافقتهم لقبولي بها إلى مركز التوظيف حيث قام هذا المركز بدفع كافة النفقات إلى المدرسة زيادة على راتب شهري وكأنني أعمل ولمدة ثلاث أشهر حيث تعلمت كل ما يتعلق بجهاز الكمبيوتر وكيفية كشف الأعطال وإصلاحها، إن الكثير من الأجهزة الإلكترونية المعطوبة ترمى في الشوارع لغلاء اجرة إصلاحها، وبدلا من إصلاحها يفضل الناس رميها وشراء جهاز جديدا بنفس سعر اصلاح القديم، أصبحت كلما أجد كمبيوتر ملقى في الطرقات أحمله إلى البيت وأقوم بإصلاحه على أمل بيعه، توجد محلات تدعى أومايبس وهي عبارة عن محلات تبيع كل شيء وبأسعار جدا رخيصة لأنها مستعملة سواء وجدوها في الشوارع وقاموا بإصلاحها ثم عرضوها للبيع أو أصحاب السلع يريدون رميها فيتصلوا بهذه المحلات لتأتي وتأخذها مجانا لأن موظفيها كانوا من الناس العاطلين عن العمل ولا مأوى لهم أي ينامون في الشوارع ويتسولون لقمة طعامهم اليومي، كنت أذهب إلى هذه المحلات لأشتري ما يلزمني من شاشات للكمبيوتر أو لوحة المفاتيح أو الفارة ليصبح عندي كمبيوتر كامل ثم أبيعه، لقد نجحت ببيع القليل من هذه الكمبيوترات لصعوبة إيجاد الزبائن، ولقد استطعت أن أرسل الكثير إلى سورية والمغرب لعدم توفره هناك بهذا الوقت وإن توفر تكون أسعاره غالية جدا، إنها مهنة جميلة وشيقة ولقد أحببتها جدا فطبعت الكروت وقمت بتوزيعها على البيوت في صناديق الرسائل ولكني لم أحظى إلا بالشيء القليل جدا، يجب البحث عن مهنة أخرى، عدت للعمل كبائع في الأسواق المتنقلة التي تدعى مارشييه مع زوجتي نادية التي ساعدتني كثيرا بانتقاء السلع وبأسعار رخيصة لبيعها والربح منها، وافتتحت متجرا وبدأت العمل به وبالأسواق المتنقلة لمدة سنة وكان العمل متعبا جدا والمردود قليلا جدا، وفي يوم من الأيام اتصل بي مدير شركة شحن للعمل معه فقبلت العمل وبعت كل شيء لأحد أصدقائي وعدت للعمل كسائق شاحنة كبيرة

للمسافات البعيدة، حيث تقوم الشاحنات الصغيرة بتجميع البضائع التي ستوزع على المحافظات الفرنسية في شركة كبيرة حيث تقوم بفرز كل منطقة لوحدها ويأتي دور الشاحنات الكبيرة مثل شاحنتي لأخذ هذه البضائع وإيصالها الى المحافظة المطلوبة، كنت أبدأ بالسفر الساعة الواحدة بعد منتصف الليل لأكون في ميلوز على حدود المانيا الساعة السادسة صباحا إذ تأتي الشاحنات الصغيرة لتوزع البضائع التي جلبتها معي على أصحابها وتعود في المساء محملة ببضائع جديدة لأحملها لتعود الى باريس بينما أنام في هذه الفترة داخل شاحنتي المزودة بسرير مريح خلف مقعد السائق، وفي المساء أترك ميلوز الساعة الخامسة لأكون في باريس الساعة الثانية أو الثالثة صباحا لأعود إلى منزلي وأنام بينما تأتي الشاحنات الصغير مثل التي كنت أعمل عليها لتوزع البضائع على أصحابها وتعود في المساء محملة ببضائع جديدة، استيقظ مساء لأذهب الى عملي لأجد الشاحنة مليئة بالبضائع وأسافر الى ميلوز.

لم أعد أرى عائلتي كثيرا وخاصة أولادي لذلك حاولت الاستقالة ولكن صاحب الشركة قال لي بأني سأخسر كثيرا إذا استقلت لذلك يجب البحث عن حل آخر لأترك عملي، من القوانين الفرنسية، يجب على كل إنسان يريد العمل بمهنة معينة أن يعمل كشف طبي ليقرر الطبيب المختص هل باستطاعته العمل في هذه المهنة أم لا، لذلك أخذت موعدا وذهبت إليهم مع الأوراق الثبوتية وأوراق المستشفى التي كنت فيها ولا أزال أتردد عليها بسبب مرضي المزمن والفحوصات التي كنت أعملها بانتظام، وبما أن مرضي لا أمل له بالشفاء فقد قرر الطبيب أن يمنعني من قيادة الشاحنات الكبيرة حتى لا أعرض حياة الغير إلى الخطر، وبذلك السبب قد تسرحت ولجأت إلى الوكالة الوطنية للتوظيف لأقبض 70 بالمئة من راتبي وأنا مرتاح في بيتي ولمدة 3 سنوات.

في هذه الأثناء كنت قد اشتريت مع زوجتي منزلا بالتقسيط لمدة 25 سنة، وكان رخيصا نوعا ما لأنه على العضم أي لا يحوي إلا الحيطان والسقف، وهو عبارة عن القبو والطابق الأرضي والطابق الأول والطابق الثاني والسطح المغطى على شكل رقم ٨ وكل طابق يحوي غرفتين وتواليت ومطبخ، وبما أني أتقاضى راتبا بدون عمل استغليت الفرصة وعملت كل شيء في البيت تقريبا بعد أن تعلمت أسرار المهن التي تتعلق بالبناء من أصحابها، وأصبح جاهزا للسكن بعد سنتين، وعندما استقريت في منزلي الجديد مع عائلتي، بدأت بالبحث عن عمل لأن الوضع أصبح صعبا دون مردود جيد، فوجدت عملا كسائق باص، أي عمل يتقدم

إليه الإنسان يجب عليه تقديم سيرة عن الأعمال التي قام بها في حياته، وبما أني عملت على الشاحنات مدة طويلة أدخلوني للعمل مباشرة دون أي فحص، وبعد 5 سنوات من عملي هذا استلمت رسالة من المستشفى تستدعيني فيها على وجه السرعة، لأني لا أزال أقوم بالفحوصات اللازمة كل ستة أشهر بسبب مرضي، ذهبت لأستعلم السبب فحجزوني عندهم وقالوا لي أن قلبي في خطر ولا يجب مغادرة المستشفى قبل الانتهاء من كافة الفحوصات، وبعد أسبوع قالوا لي بأنني بحاجة ماسة إلى اجراء عملية القلب المفتوح، تغيير ثلاثة شرايين أساسية للقلب، من حسن الحظ كنت قد تركت التدخين منذ ثمانية أشهر تقريبا بعد أن كنت أدخن ثلاث علب من السكائر كل علبة تحوي عشرين سيكاره أي ستون سيكاره في اليوم، في الموعد المحدد لإجراء العملية قاموا بتعقيم أكثر الأجزاء من جسمي التي ستتعرض للجراحة وأحسست بالرعب ولكني هدأت نفسي بقولي بأنني سأموت إن لم أجري هذه الجراحة، دخلت غرفة العمليات ووضعوا جهاز التنفس على فمي وأنفي وفي خلال ثواني كنت قد غبت عن الوعي نهائيا، بعد العملية الجراحية أحسست بالهواء الذي يدخل إلى الرئتين وكان إحساسا جميلا، شعرت بالأكسجين يملأ صدري ثم شعرت بشيء يخرج من فمي كان ذلك أنبوب التنفس الاصطناعي الذي يوصل الهواء الى الرئتين وبصوت يدعوني إلى التنفس بشكل طبيعي وحاولت التنفس وحدي بدون مساعدة الانبوب الذي حرموني منه إلى أن استطعت التنفس بصعوبة عندها فتحت عيني لأجد نفسي ملقى على السرير لا أستطيع أن أتحرك ووجدت الكثير من الخيوط الكهربائية الملصقة بصدري والموصولة بالطرف الآخر في جهاز لتخطيط القلب كما وجدت انبوبين يخرجان من معدتي لينتهوا في وعاء بلاستيكي وانبوب آخر يخرج من المثانة إلى كيس من البلاستيك بجوار السرير الذي أرقد فيه كما أنه يوجد ملقط صغير في اصبعي لقياس الضغط وانبوب آخر تحت أنفي له فتحتين لينفث الاوكسجين مباشرة الى انفي كما وجدت جهازا صغيرا موصولا بشريان رقبتي لكي يمدوني بأدوية حساسة وبسرعة عند اللزوم وكيس معلق فوق رأسي وموصولا بشريان في يدي ليمدني بالقوة اللازمة بعد العملية الجراحية، بقيت ثلاث أيام ممددا على السرير بدون حركة لأنني موصولا بكل هذه الخيوط والأنابيب والأجهزة الالكترونية، في اليوم الثاني من العملية الجراحية شعرت بنفسي وكأنني في قطار يسير بسرعة كبيرة وبدأت أهتز باهتزاز سير القطار ولاحظت الممرضة تجري نحوي لكي تحقنني في قدمي وبطني وتضع موادا في العلبة الموصولة في شريان رقبتي حتى أحسست بأني عدت إلى حالتي الطبيعية فسألت عما جرى فقالت لي الممرضة بأن

قلبي بدأ ينبض بسرعة كبيرة ووصل إلى مرحلة الخطر، في اليوم الثالث جاءت الممرضة لتحررني من بعض الخيوط والأنابيب الموصولة بجسمي وأبقت على المهم منها، ثم جاءت ممرضة أخرى مع شفرة الحلاقة ومرآة صغيرة وبدأت بحلاقة ذقني ومسح وجهي وتنظيفي لتهيئتي للزيارة إذ جاء موعد زيارة زوجتي وبعدها أصدقائي، نقلوني بعدها إلى غرفة مجهزة بتلفزيون فيه أكثر من 150 قناة ولمدة أسبوع ثم نقلوني إلى مستشفى ثان ولمدة شهرين لكي يساعدوني على الحركة والرياضة لأعود مثلما كنت قبل العملية.

إن كل إنسان في فرانسا يجب أن يكون له طبيبه الخاص الدائم ليعلم كل شيء عن صحته، وأنا أيضا لدي طبيبي الخاص الذي يتابع أخباري الصحية بالتعاون مع المستشفى المشرفة على صحتي، وعند خروجي من المستشفى ذهبت لعنده ليعطيني استراحة لمدة شهر، فقال لي بأني لا أزال ضعيفا ولست قادرا على الرجوع إلى عملي، وأصبحت كل شهر أذهب لعنده ليجددها شهرا آخر وهكذا لمدة ثلاث سنوات كاملة وأنا اتقاضى مرتبي كاملا من التأمين الصحي الذي يعطيني 70 بالمئة من راتبي وعملي يدفع لي الباقي، في هذه الأثناء كانت زوجتي قد عملت كمساعدة اسرية عند الدولة بعد دراسة عامين علم النفس وتقوم بتربية الأولاد المحرومين من الحياة الطبيعية مثل باقي الأطفال أو الأطفال الذين يعانون من مشاكل أسرية، وذلك بفضل منزلي الكبير، وبما أني لم أعد أقوى على عملي كسائق باص تقدمت لعمل فحص طبي لممارسة هذه المهنة الجميلة ووافقوا عليها، درست لمدة عامين علم نفس الأطفال على حساب الدولة وتأهلت للعمل مثل زوجتي حيث نعمل معا في منزلنا على تربية الأطفال ونقدم لهم الحب والرعاية والاهتمام الصحي والجسدي والنفسي وبالأخص الأمان الذي يحتاج إليه كل طفل.

منذ أكثر من 10 سنوات وأنا أعمل في هذه المهنة الرائعة ولا أزال أعمل فيها، هذه المهنة التي فتحت عيوني على أسرار الغرب، إن الأطفال في فرانسا يعتبروا أطفال الحكومة الفرنسية، بمعنى أنهم سيصبحون أفرادا عاملين على تقدم فرانسا في المستقبل ولهذا تعمل الحكومة على تربيتهم أحسن تربية وخصصت لهم كل الاهتمام اللازم، لا فرق بين طفل أسود وطفل أبيض، الألوان ليست لها علاقة بالتربية، استقبلت الكثير من الأطفال ومدت لهم يد العون على تخطي عقباتهم، ولكني لم أستقبل طفلا واحدا من أصول فرنسية أو أوربية، كنت أستقبل أطفالا من أصول عربية أو افريقية، وهذا يدل على مدى تخلف تلك البلاد أمام البلاد

المتقدمة، حتى زملائي بالعمل لم يستقبلوا إلا من أصول عربية أو افريقية، كما أن جميع زملائي بالعمل كانوا من أصول عربية وافريقية أيضا، أما المشرفين علينا وعلى تربيتنا للأطفال المحتاجين للمساعدة فهم من الفرنسيين وبعض العرب و الأفارقة، الأصول العربية كانت من دول شمال إفريقية فقط، توجد مدارس خاصة للأطفال الذين يعانون من أمراض عقلية، وتوجد مراكز عناية لمتابعة الأطفال نفسيا وطريقة لفظ اللغة الفرنسية، وكل هذا على حساب الدولة التي تمهد لاستقبال الجيل الجديد، وعندما يبلغ الطفل سن الرشد يخرج من الحياة العائلية التي وفرتها الحكومة له وينتقل بمساعدتهم إلى الحياة العملية وتحمل مسؤوليتهم بأنفسهم إلا اللذين لا يزالون يتابعون دراستهم فيسمح لهم حتى سن الواحد والعشرين، توجد الكثير من عائلات استقبال هؤلاء الأطفال بأن تقوى الروابط العاطفية مع هؤلاء الأطفال ولا يتخلون عنهم حتى بعد سن الرشد ويستقبلوهم في منازلهم مجانا بسبب هذه الروابط العاطفية كما توجد عائلات تعتذر عن استقبال الأطفال المشاغبين جدا وعدم استطاعتهم السيطرة عليهم وخاصة عندما يبلغون سن المراهقة لتتكفل بهم الدولة وترسلهم إلى مدارس داخلية متخصصة.

من الأهداف الرئيسية للدولة من هذا الفرع الهام من العمل هو توفير المناخ الملائم لحماية الأطفال وتربيتهم بشكل جيد ولهذا تعمد إلى مساعدة الأهل بالعمل والسكن لاستقبال أبنائهم بشكل أفضل، وتحاول أن تقوي العلاقة الفاترة بين الأهل والأبناء، توجد أطفال ومن كافة الأعمار والأجناس قد أهملوا من قبل آبائهم وأمهاتهم رغم محاولة المختصين بتقوية العلاقات بينهم، في هذه الحالة تقوم الدولة بعرضهم للتبني، للتخلص من مصرفهم ولخلق جو عائلي جيد للطفل، وكثير من العائلات التي تعمل مع الحكومة على تربيتهم هم من يتبنوا هؤلاء الأطفال لقوة الروابط العاطفية تجاههم، إن الكثير من الأطفال الذين يعيشون عند العائلات التي تعمل مع الدولة، يعيشون ضمن قرار من المحكمة، ولا يعودوا إلى ذويهم إلا بقرار من المحكمة أيضا، ولكن هنالك أطفالا يعيشون عند عائلات الاستقبال برضى الوالدين ضمن عقد يمضى بينهم وبين الآباء لمدة سنة قابلة للتجديد كل عام حسب الأحوال المعيشية للوالدين بعيدا عن المحاكم وقراراتها.

أما المدارس فالطفل يدخل الحضانة على عمر ثلاث سنوات، ويوزع على صفوف تعداد كل صف ما يعادل العشرة تلاميذ ويستمر هذا التعداد إلى الجامعة. يتخرج الطفل من الحضانة في السادسة حيث كان يتلق تعليم الانضباط وروح العمل الجماعي والأناشيد والتمهيد لتلق الحروف وكيفية كتابة أسمائهم وأسماء

زملائهم وتعلمهم السباحة وأنواع أخرى من الرياضة والأهم من كل هذا الأمان الذي يشعر به الطفل وحبه للمدرسة واستعداده لتقبل العلوم، أول ذكرياتي في سورية كانت أيام الحضانة ولا أذكر سوى أن الآنسة كانت تجبرني على النوم على مقعد الدراسة وكانت تضربني عندما لا أستطيع النوم، أما هنا فالضرب ممنوع منعا باتا وكل مخالف يعرض نفسه للطرد من عمله، ثم يدخل الطفل الابتدائي حيث يبدأ بشكل جدي القراءة والكتابة والرياضيات ولغة أجنبية أخرى وبعض المواد الأخرى مثل الرسم والتاريخ، في كل مدرسة حضانة أو ابتدائية يوجد فيها المدير والمعلمين بالإضافة إلى دكتور في علم النفس ودكتور صحة عامة كما ويوجد فيها مطاعم للأطفال حيث يقومون بتجهيز الأطباق المدروسة اليومية للأطفال والإشراف على طعامهم وتعلمهم للنظام في كل شيء، كل طفل يولد على الأراضي الفرنسية يحصل على دفتر خاص لتدوين كل تطوراته الصحية والحرص على تلق لقاحاته في مواعيدها وأينما ذهب الطفل يجب أن يكون هذا الدفتر متوفرا وسهل الحصول عليه لمراقبة حالته الصحية، عندما ينجح الطالب الى الصف السادس يعادل هنا في فرانسا الصف الأول الإعدادي ويتقدم الى شهادة الكفاءة بعد أربع سنوات ليدخل بعدها المرحلة الثانوية ويتقدم للبكالوريا بعد ثلاث سنوات ليدخل بعدها الجامعة، ان عدد الطلاب في كل صف يتراوح ما بين الثمان الى خمسة عشر طالبا في كل مراحل تنقله بالمدارس لكي يتيح للمعلم الوقت الكافي ليفهم كل طالب على حدى ومساعدته إذا احتاج إلى أي شيء.

إن تربية الأطفال ليست سهلة ولكن الصعوبة الكبرى تكمن في مرحلة المراهقة حيث يجب معاملة الطفل على أنه بالغ مع مراقبته عن كثب كونه لا يزال طفلا، سواء في البيت أو الشارع أو المدرسة، في هذه السن الصعبة تتكون شخصية الطفل ويتحول إلى إنسان بالغ يبدأ في الانخراط بالحياة الفعلية لكي يقدم لنفسه ومحيطه وبلده ما يستطيع.

في وطني سورية أذكر بأنني كرهت المدرسة من الحضانة بسبب ضرب المعلمة لأتفه الأسباب، وازداد كرهي ورعبي في الابتدائي للأسباب ذاتها، والإعدادي لا يختلف كثيرا عن أسلوب الضرب بل يزداد أكثر بكثير بسبب وصول الطلاب إلى مرحلة المراهقة وبدلا من مراعاة هؤلاء الشباب الناشئين يزداد قمعهم وتذليلهم، أذكر بأن تعداد الطلاب في الصف الواحد ما بين الأربعين والستين طالب معظمهم لا يتعلمون شيئا والمعلمين لا يكترثون كثيرا لأحوال الطلاب بل

يقمعونهم في سبيل راحتهم، في المرحلة الثانوية أذكر بأن الضرب كان نادرا ولكن العقوبات المعنوية كانت كثيرة مثل الطرد والتوبيخ واستدعاء الأولياء..

التقاعد

السن القانوني للإحالة على التقاعد هو الثاني والستون عاما ولي الاختيار بأن أذهب أو لا إلى التقاعد حسب سنين العمل أو الأعمال التي مارستها بحياتي، وإذا لم أحصل على النقاط اللازمة للإحالة على التقاعد بإمكاني أن أرفض التقاعد وأتابع عملي ليحسب فيما بعد بزيادة راتبي التقاعدي، والحالة الثالثة التي أنا اتبعتها هي الذهاب إلى التقاعد ومتابعة عملي حيث أقبض ربع راتبي التقاعدي بالإضافة إلى راتبي من عملي، بما أن زوجتي لا تزال تعمل في هذه المهنة الجميلة وأنا أساعدها في تربية الأطفال فلا مانع من أن أتابع عملي إلى أن تصل زوجتي إلى التقاعد عندها سيتسع لنا الوقت ربما لأن نحيا كما نريد.

بما أن أهلي وأكثر أصدقاء الطفولة والشباب قد تركوا بلدي الأصلي سورية بسبب الحرب وتوزعوا في أنحاء العالم فقد قررت أن أكمل ما تبقى من حياتي بين فرانسا والمغرب حيث أسسنا منزلا جميلا وكبيرا لتمضية حياتنا التقاعدية، وبما أن هوايتي هي القراءة والبحث العلمي والمنطقي فقد بدأت من فترة ترتيب كتبي وقصصي لحياة التقاعد وأضيف عليهم ما ينقصني حيثما كلما قرأت أكتشف بأنه لا يزال هناك الكثير من ما ينقصني من كتب وبحوث علمية، قلت فيما سبق بأنني ترعرعت في عائلة مسلمة وحي مسلم ومدارس إسلامية ومارست التقوس الدينية لغاية دخولي الجامعة حيث بدأ الشك يدخل قلبي بسبب دراستي العلمية وبدأت أبتعد رويدا رويدًا عن الأديان جميعها وجئت إلى فرانسا حيث ابتعدت عن الأجواء الدينية بما جعلني أقرأ كثيراً من الكتب الدينية بشكل نقدي وأكتشف الخفايا التي حجبت عن العامة بهدف تضليلهم ومنعهم من

الابتعاد عن دينهم، أوربا نهضت بوجه الأديان في القرن السابع عشر وأهمها الثورة الفرنسية وقبلها ثورة مارتن لوثر ضد الدين المسيحي الكاثوليكي، وصراع الأديان بين الكاثوليك والبروتستانت، واكتشفت أن العرب والمسلمون في هذا القرن الواحد والعشرون لا يزالون يعيشون كما عاش الأوربيون في القرن السابع عشر أي بأننا متأخرون عن الغرب بأربع قرون، والحروب القائمة في بلادنا العربية والإسلامية على الطائفية الدينية لهي أكبر مثال على تخلفنا، إن زوجتي وأهلها حتى أولادي يعيشون في جو مشبع بالطقوس الدينية ويمارسونها بشكل قوي ودخلت معهم في نقاشات كثيرة ولكنها عقيمة لم أحصد منها غير نفورهم مني وابتعادهم عن مناقشتي وكرههم لأفكاري حتى إخوتي وأخواتي المنتشرين في بلاد العالم يعاتبوني على تفكيري ويبتعدون عن النقاشات الدينية أو غيرها معي، ولا أزال أقرأ وأفسر وأحلل وأزداد يقينا بصحة معتقداتي ولكني أحترم معتقدات الآخرين ولهم كامل الحرية بما يعتقدون وأحترم الإنسان والإنسانية ولكن بعض الناس لا يحترمون أحد ويأخذون ما يريدون سواء بالقوة أو بالسياسة وهؤلاء لم أستطيع محبتهم أو التظاهر بمحبتهم ولكني أحترمهم وأحترم آرائهم لكن هذا الاحترام فسره البعض بتفسيرات متناقضة سواء ضعف في الشخصية أو عقدة نفسية أو أشياء أخرى مما أدى إلى المزيد من نفورهم مني، حتى زوجتي التي بدأت تتأثر بآرائهم وبدأت تبتعد عني ذهنيا وربما ستبتعد عني جسديا في المستقبل بسبب أفكاري، كل هذا زادني قوة للمزيد من القراءة والبحث والتحليل لتزداد ثقتي بنفسي وبصحة معتقداتي ولكن أين الحل؟ هذا ما سأجده ربما في المستقبل.